سَأُخْبِرُ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

I will tell God everything



بوخاري خيرة سلسبيل

رواية

سأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شَيْءٍ

I will tell God everything

رواية

بوخاري خيرة سلسبيل

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

الإهداء الأوّل

إلى الشَّعبِ الذِي يخيطُ جِراحَهُ بنفسهِ

وُيخرجُ عدّوهُ من نفسِ عنق الإبرة التي أخَاطَ بَها جرحهُ"

"سلسبيل"

الإهداء الثّاني

إلى حرائر فلسطين "فكلُّ نساءِ العالم يلدنَ للحياةِ إلا المرأة الفِلسطينيّة فإنّها تنجبُ للشّهادة"

إلى رُوحِ كُلِّ طِفْلٍ فلسطيني وُلد من تحتِ الأنقاض

إلى رُوحِ الأطفال الذين سبقوكُم ليُخبروا الله بكلّ شيء فجهزوا أجوبتكُم حين تغادرونَ"

الإهداء الثّالث

إلى روح المرأة الجزائريّة التي قالت لابنها أثناء الثَّورة التّحريريّة:

"تزوّج لِكيْ أرى أولادكَ"، فردّ قائلا:

"عندمَا تنتهي الثّورة سَأتزوَّج وأنجبُ لكِ أحفادًا

وإن استشهدتُ فكلُّ الجزائريينَ هم أولادك"

-قاضي عائشة أمّ الشّهيد العربي بن مهيدي-

الفصل الأوّل

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ الأبرياء استشهدوا غدرا، كانوا يحلمون بغدٍ أجمل فوجدُوا أنفسهم داخل الجنّة، ما أروعه من حلم حين التقى بالحقيقة في الحلم!

2-سَأُخْبِرُ الله أنّنا مجرّد أرقامٍ، فالطّفلُ فينا بعمر القرن، والشّيخ لا يزال يبحث عن سنين يستعيرها ليستعيد بعضا من شبابه الهارب منه في شيبة رأسهِ.

3-سَأُخْبِرُ اللهَ أنّنا مهما كبرنا، يبقى ذلك الطّفل الصّغير يُداعبنا، يمازحنا، فلا تكبر حين تشعر أنّك تصغر، ولا تستسلم لمنطق الكبار لأنّهم نسوا أنفسهم.

4-سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ البراءة صبروا حتّى انشقّ لصبرهم الحجر دون البشر.

5-سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ الأطفال في الأرض المباركة يُزرعون كأنّهم شجر الزيتون، زيتهم يضيء المدينة ولكن لا أحد يفقهُ ذلك إلّا من كان منهم.

6-سَأُخْبِرُ الله أنّنا أخفينا أحزاننا ولكن كشفتها عيون البراءة التي لا تعرف الكذب، عيونهم التي كانت أشبه بشاشة تلفاز عكست بشاعة الإنسانيّة.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

ثَمّة أشياء لا تُروى، لا لأنّ أصحابها نسوا تفاصيلها، بل لأنّ بعض الذّكريات، مهما مرّ عليها الزّمن تبقى منقوشة في ذاكرة صاحبها، تظلّ قادرة على أن تعيدنا إلى اللحظة نفسها بمجرد ذكر اسم مشابه أو عطر مشابه أو هدية مشابهة...

كان الصّباح هادئًا أكثر ممّا ينبغي....

ضوءٌ شاحبٌ يتسلّل من بين ستائر غرفتي، فيرسم على الأرض خطوطًا لا أعرف قراءة كفّها، فلا أحد يعرف قراءة تجاعيد الوجه ولا نبوءات الأرض، ومن خلف النّافذة، كانت المدينة تستيقظ ببطء على صوت المؤذّن...

صوت سيارةٍ بعيدة، وقع خطواتٍ متعجلة، وبائعٌ ينادي في الشارع كأن شيئًا في هذا العالم قد تغيّر.

جلستُ أمام شاشة هاتفي دون أن أقرأ شيئًا.

كان وجهي منعكسًا على الزّجاج الأسود، شاحبًا ومتعبًا، وعيناي معلّقتين بتلك الملامح التي أعرفها منذ سنوات، ومع ذلك شعرتُ بغرابةٍ لا أستطيع تفسيرها.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

المطر يهطل منذ الفجر، يغسل الأرصفة دون أن يغسل ما علق في ذاكرة البشر...

وقفتُ خلف زجاج النافذة أراقب الشارع، الناس يعبرون مسرعين، يحمون رؤوسهم بما تيسّر لهم، بينما كان رجلٌ عجوز يمشي ببطءٍ في الجهة المقابلة، يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا بين ذراعيه.

-لم أفهم ما الذي يبيعه... عقارا... كنزا... وهما...

حتّى توقّف أمام المقهى، وضع صندوقه على الأرض، ومسح المطر عن وجهه، ثم رفع صوته:

-من يشتري لي الوطن؟

ساد الصّمت للحظة.

ضحك أحدهم وقال: ومن الغبيّ الذي يبيعك وطنه؟

أشاح آخر بوجهه: وقال: مجنون يبيعُ الوطن !

أمّا الرجل، فلم يضحك وسأل مرّة أخرى:

-من يشتري لي الوطن؟

قال: وهل للوطن ثمن؟

قال: "مَن يشتري لي الوطن؟"

قيل: "وكم الثمن؟"

قال: "وهل للوطن ثمن؟ إن كان له ثمن، فالروح له ثمن"

ظلّ واقفًا تحت المطر، صامدا، يغتسل من هموم الدّنيا التي أنهكته، ينظر إلى الوجوه من حوله، كأنّه ينتظر شخصًا واحدًا فقط، ولسببٍ لم أفهمه يومها، شعرتُ أن النّداء لم يكن موجّهًا إلى المارة.

كان موجّهًا إليّ لأنّني ببساطة أنا الوطن... فكلّ شخص فينا هو الوطن

وفي تلك اللحظة، لم أكن أعرف أنني سأقضي بقية حياتي أبحث عن معنى تلك الجملة.

"من يشتري منّي الوطن؟"

لأنّي **ببساطة... أنا الوطن.**

عندها فقط فهمت.

لم يكن يتحدث عن أرضٍ بعيدة، ولا عن حدودٍ ترسمها الخرائط.

كان يتحدث عن الإنسان.

عنّا نحن.

عن كل واحدٍ يحمل في قلبه بيتًا تركه، ووجهًا لم ينسه، وذكرى لا يستطيع أن يدفنها مهما ابتعد.

فكلّ شخصٍ فينا هو الوطن.

كان ذلك أول ما سمعته في صباح ذلك اليوم، فأحدث في عقلي زلزالا...

لم أعرف من أين جاء الصّوت، ولا لماذا بدا لي مألوفًا إلى هذا الحد.

في اليوم الموالي كانت السماء صافية وكان الشارع ممتدًا، والناس يمضون في اتجاهاتهم المعتادة، كأن أحدًا لم يقل شيئًا.

ثم ظهر رجل آخر و يحمل أيضا حقيبةً قديمة، ويمشي حافيًا رغم برودة الأرض. لم يكن في ملامحه ما يلفت النظر، سوى عينين تحملان ذلك النوع من التعب الذي لا تصنعه ليلةٌ سيئة، بل سنوات كاملة.

توقف في منتصف الطريق.

رفع رأسه وقال مرة أخرى:

-من يشتري مني الوطن؟

هذه المرة لم يضحك أحد.

ربما لأن صوته لم يكن صوت بائع.

كان صوت رجلٍ فقد شيئًا، ثم ظل يبحث عنه حتى نسي كيف يعيش بدونه.

راقبته من خلف النافذة، ولم أعرف لماذا شعرتُ بالخجل.

بعد سنوات، فهمت السبب.

كان الوطن الذي يسأل عنه... بيته الذي دمره الاحتلال الصهيوني ولكنّه الآن لا يخبر أحد، بل يخبر الله وحده....

"سَأخبرُ الله بكلِّ شيء"

-هل استقبلت البشرية رسالتها بوعيٍّ أم أنَّها لا تزال تنام في كهفها؟

-ماذا لو عاد ذلك الطِّفل مرَّة ثانية، ولكن ليس بعبارتهِ الأولى؟ بل بظواهر أخرى، سيعود بعدَّة صور لم تخطر على قلبِ بشر ولم ترها عين ولا سمعت بها أذن، سيَعود ذلكَ الطِّفل الصَّغير سينثر صوتهُ من أعلى الجبال ليتردّدَ على المعمورة بأكملها، لعلّهم يسمعون أويستجيبون، سيعودُ بصورة إعصار، سيعودُ بصورة الوباء، سيعودُ بكلِّ آية من آيات الله، أنقذُوا أنفسكم قبل أن يعودَ،

أنقذوا ما تبقى من حياتكم، أنقذُوا ما تبقى من أعماركم، أنقذوا ما تبقَّى من جوهركم، أنقذوا ما تبقى من طيبة في قلوبكم، أنقذوا هذا العالم من فتات الإنسانيّة التي فقدت روحها وبريقها ففقدت كلّ إحساس جميل".

السّاعة تُشيرُ إلى تسارعِ نبضات القلبِ 00:00

المكان: بين السَّماءِ والأرضِ

ألو: مرحبًا

"أنا الصَّحفي **بابلو** الذي فقد عقلهُ وهو الآن يقبعُ في مُستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"

-لا تنس عادتك يا **بابلو** حتّى على متن الطّائرة وتمزح.

أنا لا أمزحُ يا **جوزيف،** هذه العبارة قرأتها البارحة بين السّماء والأرض وأنا نائم.

-كنت تهذي أكيد!

-ربّما نعم، ربّما لا، فكلُّ ما كنت أراهُ منذُ صغري كان يتحقّق!

دعنا من هذا الكلام ستقلعُ الطّائرة، وأخاف أن يتحقّق كلامكَ وتصبح مجنونًا قبل أن تقوم بمهمتك في أرض الحرب.

-ألم تسمع أنّ أكثر المجانين هم من كانوا يملكون عقلا راجحًا، ولأنّ الواقع يسيرُ عكس الحقيقة وعكس التّيار أصيبوا بالجنون.

-أكثر العقلاء يتّهمونهم بالجنون!

لا لشيء إلّا أنّهم أدركوا الحقيقة قبل أقرانهم، ولأنّهم سبقوا زمنهم بسنوات ضوئيّة.

-دعنا من هذا؛ اربط حزامك يا **بابلو**، أنت الغريب الوحيد من بين أصدقائي.

نرجو من كلّ المسافرين معنا عبر روايتنا أن يربطوا أحزمتهم جيّدا، ستهبُّ رياحٌ قوّية تقتلعُ جذور من لا يملك هويّة ولا وطنيّة، سيرتفع الضّغط وينخفض السّكر، فجهّزوا أدويتكم تحسُّبا لأيّ ظرفٍ طارئ...

-ها، ها، ها أينَ السّكر التي تعوَّدنا عليها في تقديم هذه النّشرة العالميّة، لماذا قدّمها اليوم طفل؟

-أليسَ الأمر غريبًا!

-يبدو كذلك!

كانت العادة إحضار مُضيفة جميلةٍ وأنيقةٍ تقفُ في مقدّمة وسط الصُّفوف لتعطينا التّعليمات فتجلبُ انتباهنا كلّنا...

-أليس هذا غريبًا يا صديقي؟

-ههه، لستُ أدري إذا كنتُ مُنبهرًا بجمالها ورشاقتها، أم أنّني أتابع التَّعليمات...

-لا أدري لماذا جئت إلى هنا يا **بابلو**؟ كان بإمكانك العمل في بلدك، لماذا جئت هنا للتّضحية بنفسك؟

ستموت قريبا وأنت في رعيان شبابك.

-أحبُّ المغامرة يا صديقي، فالحياة بدون مغامرة حقيقيّة أشبه بغرفة سجن تأكل وتشرب وتقضي حاجتك ثمّ تنام.

-هل تريد الموت معهم؟

-كلا؛ لا أريد ذلك ولكنّني أعشق مهنة الصّحافة منذ صغري ومهمَّتي كانت التّغطية الإعلاميّة.

-ولماذا اخترت هذا البلد بالذّات؟

أنا اخترت غزّة، لقد كنا فريقا يتكوَّن من 30 صحفيا كلّهم اختاروا وجهات سياحيّة وتغطيات إعلاميّة لمواضيع معيّنة إلّا أنا اخترت وجهة تاريخيّة.

-ألم تتخوّف في بادئ الأمر؟

- لا لم أتخوف أبدا لأنني أعرف تاريخ البلد.

"تعرف تاريخ البلد!؟"

نعم أعرفُ ذلك فقد كان جدّي يروي لي قصص التّاريخ، حتّى الكتب السّماوية قرأها لي واحدا واحدا (التّوراة، الزّبور، الإنجيل، القرآن) وكلّها تدعو للسّلام وتبغض الحرب، فجدِّي

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

من بين الإعلاميين الذين يبحثون في التّاريخ العالمي، فما أراه اليوم هو نتيجة الأمس، وما نراهُ انعكاس للغد.

-كيف ذلك؟

-لا عليك، إذا شرحت لك فلن تفهمي الآن.

(التفتَ **بابلو** إلى الطّفل الذي يتكلّم)

-كم عمرك يا ولد؟

-تقصدني أنا؟

-نعم، أنتَ؟

-مئةُ ألفٍ أو يزيدون**!**

-اندهش **بابلو** من كلام الطّفل وقد جحظت عيناي، ظنّ أنّهُ يهذي أو يلعب.

-ألا تعرفني من أنا؟

-لا، أظنّ أنّني لمحتك مُسبقا.

-أنا الطّفل العائد من أرض الشّهادة، والشّهداء سيعودون لتحرير الأرض المباركة هذا المساء، سيعودون بعدّة صور غير صوركم، سيعودون بعدّة طرق غير طرقكم، سيعودون بأجنحة الملائكة، سيعودونَ وهم جنود لن تروهم، وأعمارهم ليست مثل أعماركم، فهم يزيدون عن عمر 300 عام.

- لا أدري أين لمحتك؟ في مدرسة أو المقهى أو الهاتف**!**

-لن أخبرك بشيء فات الأوان، لأنّي **"أخبرتُ الله بكلّ شيء"**

"الله يَعْلَمُ كُلّ شيء، كيف تخبرهُ أنتَ؟**"**

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

"سأمضي الآن لأنّك لن تفهمني، لمّا تزور الأرض المباركة ستدركُ كلّ شيء، ولكن قبل أن أنصرف سأترك لكَ رسالة جدّي"

-يبدو أنّها ثمينة سأضعها في المتحف، فالأشياء الثّمينة توضع في المتاحف.

"نحنُ نستودعُ الله ليحفظ لنا كلّ شيء ثمين عندنا"

ولكن لن نختلف في هذا الأمر إليكَ هذه الرّسالة التي تركها لي جدّي لعلّك تُنقذ بها حياة أشخاص قبل فوات الأوان، فجدّي كان يعشقُ قراءة الكتب ويحتفظُ بكلّ ما هو ورقي وهذه رسالتهُ:

"احتفظوا بكتب التّاريخ بنكهتها الورقيّة، سيأتي يوم تتلفُ فيه كلّ الأجهزة الالكترونيَّة التي بينَ أيديكم، ويُحذف كلّ شيء من القنوات، سيذهب كلّ تعبك هباءً منثورا"

-أتعرفُ ماذا سيقولون لكم يا بني؟

سيقال لكم حدث خلل نرجُو منكم المعذرة لمحو كلِّ معلوماتكم، كلّ بياناتكم، كلّ ملفَّاتكم، كلّ مشاريعكم، كلّ أحلامكم، كلّ صوركم، ويعودون للبحث عن الكتاب والمخطوطات القديمة... وستعودون لأخذ الكتاب بقوّة، أغسطس 2024، سيكون استعمار من نوع دقيق، ينثرون بهِ الدَّقيق على أعينكم".

جوزيف

-وارد، هل نطبعُ كلّ شيء ونحتفظ به في صُندوق الذّكريات حتّى لا يضيع عمرنا وأحلامنا؟

(يستحضر **بابلو** حادثة)

فأنا لازلتُ أذكر يا **جوزيف** سبب جنون ذلك المصوّر للطِّفل الإفريقي، كان يبحثُ عن تحقيق حلمهِ في صورة فقط، ولم يدرك أنّ ذلك الطّفلُ هو صورة العالم بأكمله، فلمّا تمكّن منه في ثوانٍ ضاع عمره كلّهُ، ترك النّسر يلتهمُ الطّفل، بينما هو منهمك في أخذ لقطة العمر فضاع العمر كلّه وأتبعته الحسرة والنّدم، هكذا نحن البشرُ نركزُّ على أشياء مادّية متناهية وننسى الرُّوح وهي جوهر الإنسانيّة اللّامتناهي، في بعض الأحيان ننساقُ وراء تحقيق أهدافنا وننسى قيمنا الإنسانيّة، وما إن نفقدها حتّى ندرك أنّنا فقدنا جوهرنا، وما إن ندرك ذلك نعيش الحسرة والنّدم، هل نفع الندم نوما؟

-هكذا هي الطفولة، لا تزال الطُّفولة تعاني منذ الأزل... فمن ينقذُها؟

-هكذا نحن يا **بابلو**

هكذا نحنُ منهمكون بمتابعة الأخبار ولما تنتهي نشرة الأخبار يضيعُ كلّ شيء، ننهمك بتحصيل الأموال ولمّا نحصّلها نكون قد فقدنا شبابنا وشغفنا بالحياة...

لأوّل مرّة يمضي الوقت سريعا وأنا على متن الطّائرة، حطّت الطائرة تمام 14:00 ليلا، نزل الجميع بسرعة كعادتهم، إلا أنا

مكثتُ قليلا أبحث عن ذلك الطّفل لعلّي أخذه منه قبسًا أو حكمة أو لغزا، لا أدري شعرت أنّه طفل غير عادي، يملك من الحكمة ما لم يملكه الكبار، كأنّ عاش الزّمن الذي قبلنا ويعيش الزّمن الذي بعدنا.

نظرتُ يمينا وشمالا فلم ألمح أحدا، أخذتُ حقيبتي الصَّغيرة وانصرفت حتّى سمعته يقول:

-أنا هنا

سألتهُ مرّة أخرى:

-من أنتَ؟ قابلتنا في الطّائرة ولازلت تقابلنا؟

ألم تقل أنّك استشهدت، كيف تعود إلينا؟

-أنا الطّفل **محمّد،** أنا القائد صلاح الدّين، أنا العربي بن مهيدي، أنا بن **بولعيد،** عمري يفوق عمرك، مئة ألف أو يزيدون، بل ثلاثة قرون كاملة أو أكثر.

-لستُ متأكّدا.

-ثلاث قرون لا يهمّ، وُلدتُ قبلكَ بكثير في ليلة قمريّة، وكلّ من يُولدون تحت ضوء القمر هم رجال الأرض لا يستسلمون ولا يخضعون بل يموتون واقفين هكذا قالت أمِّي **!**

-أنا ابن الحجارة، لا تستهن بي**!**

-حجرة واحدة قتلت جالوت**!**

-أنا أبحث عن تلك الحجارة، فرمية واحدة كان كافيّة لإنهاء طاغية؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لقد خلقني الله في أحسن تقويم، جَميلًا كيوسف، حكيمًا كلقمان، مُسبّحًا كيونس في بطن الحُوت، صابرا كأيُّوب، أسكن مدينة زارها الرّسول وصلَّى فيها الأنبياء، وقال عن فضل الصّلاة: "الصَّلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصَّلاة في مسجدي بألف صلاة، والصَّلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة"

-هل ستعود لتصلّي أيّها الطّفل؟

-لقد عُدتُ ولكن لحدّ الآن لم ينتبه لي أحد!

-سأعود وأعود، سأعود داخل الإعصار !

فكم من قرى أبادوها دون شعور ؟! سأعود مع لهيب النِّيران، فكم من قلب أمّ جعلوه محرقة لا تنطفئ على فلذات أكبادها؟ ! سأعود مع الوباء، فأنا جند صغير، جرم صغير في هذا الكون، من قالَ لكم أنّني لن أعود فقد كذب عليكم، فالشّهداء دوما يعودون بحلل أخرى وهيئات أخرى.

إلى لقاءٍ قريب.....

**

نظرتُ هنا وهناك لم أجد أحدا، أقبلت مضيفة الطائرة تسألني: ما الذي أخّرك عن النّزول ؟ قد نزل الجميعُ، الوحيد الباقي على متن الطّائرة، فقلت:

-كنت أتحدّثُ إلى ذلك الطّفل الصّغير ...

التفتُّ نحوهُ، لم أجد أحدا.

-أين هو؟ أنا لا أرى أحدا ما عداك!

لم أجد ما أقولهُ لها، انصرفتُ في صمتٍ وذهولٍ، والخوفُ يتملّكني أن ألتقيَ بذلك الطّفل في كلِّ مكان، وأصاب بالجنون حقيقةً، رحتُ أسأل نفسي:

-لماذا اختارني أنا بالذّات؟

-لماذا يظهر لي أنا بالذّات؟

-هل هيَ حقيقة أم خيال؟
تركتُ الأمر ثمّ اتّصلت بصديقي العربي الذي درستُ معه الصّحافة في بريطانيا ليستقبلني، إنّه صديقي "أنيس"
-هاي، أنا هنا **بابلو**
-مرحبا صديقي، اشتقت إليكَ كثيرا، وأنا أيضا، حان دورك الآن لاستقبالي كما فعلت أنا أيّام الدّراسة، لقد ساعدتك كثيرا يا أنيس.
-أتذكر ذلك؟
أذكر ذلك وأنا أردّ دَيْنَك عليَّ، هيّا نذهب جهَّزت لنا أمّي فطورا عربيًّا أصيلا، ينبض بالحياة العربيّة لم تتذوّق مثله من قبل، ورائحة زيت الزيتون تستقبل من أوَّل حارة.
-بابلو
-مم؛ شوّقتني وفتحتَ شهيَّتي.
-هيّا بنا.
وصلنا لعتبةِ البيت، طرقتُ الباب مرَّة واحدة، فأشرقت الشّمس حين فُتح الباب، إنّها أمّي الحجّة **هنية**...
كانت أوّل مرّة يدخل **بابلو** بيتا عربيًّا، قلتُ وأنا أضع قدمي اليمنى على عتبة الباب: "بسم الله"
فقال مثلي: "بسم الله"
فقلت: هل تعرف عادتنا وتقاليدنا وعقيدتنا؟

-نعم أعرفُ ذلك يا **أنيس**، لقد تأثرت بك كثيرا، في حين كان كلّ الشباب يشربن الخمر ويلهون مع البنات كنتَ أنت حريصا على مبادئك التي جُبلت عليها، زد على ذلك يا **أنيس** تشرّبتُ تاريخ العرب من جدّي، فنحن نلقّب جدّي بالمكتبة المتحدّثة، ولكنّني أريد أن أعايش ما قرأتهُ في منبعهِ، فليس كلّ ما قرأته حقيقة، قد تكون حقيقة تجانب الصّواب، أريد أن أتأكّد من كلّ ما قرأته في حياتكم اليوميّة.

أقبل **أنيس** يقبّل رأس أمّه ثمّ يدها، فسألتُه:

-هل تفعلُ ذلك دائما؟

أنيس

وكيف لا أفعل ذلك، فأمّي جواز سفري لقضاء يوم موفّق

دخلنا البيت، ثمَّ جلسنا، وجدنا الفراش منبسطا على الأرض، وصينيّة الأكل جاهزة، كانت أوّل مرّة أجلسُ على الأرض وأشعر أنّني من طين، فقد عدت إلى هيأتي الأولى، فحينما يمتزج الطّين بالطّين فإنّنا نشعرُ أنّنا سواسية فوق هذه الأرض، لا أحد أفضل من أحد إلا من كان قلبه مليئا بالإيمان.

وضعتُ أمتعتي في غرفةِ صديقي **أنيس** الذي استضافني كما استضفته في بلادي بريطانيا أثناء دراستنا الصّحافة.

***

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

في اليوم الموالي يحضر **جوزيف** لزيارة صديقه **بابلو**، فيمرّ على مجموعة من الشّباب، فيستنكرون وجوده.

-ماذا تريد أيُّها الأجنبي؟

-جئت لزيارة صديقي يقطن هنا، فهو يأتي للمرّة الثّانية هنا ولا يدركُ ذلك، فقد جزء من ذاكرتهِ في هذه الحرب، وقد طلب منِّي الطَّبيب مرافقته دون إخباره بذلك حتّى يستعيد ذاكرته حتّى خطيبته "ليليا" تفتقده وتعاني من نسيانه لها.

نحن أصحاب هذه الأرض المباركة، وأنتم تساندون العدوّ.

-لستُ كذلك، بل نحن ندعو للسّلام والإنسانيّة.

-هل جئتَ لتروي لنا شعارات كاذبة أو معاناة واهيّة؟!

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لستُ هنا لأروي لكم معاناتي كما تعتقدون فلا مكانَ للجبناء في هذا العالم، ولا لأروي لكم رواية حبٍّ كاذبة بين فلان وفلان، "فالحبُّ أرقى وأسمى من أن يدخل بابهُ الكذب والنِّفاق".

جئت لزيارة صديقي المفضّل المراسلُ الصّحفي **بابلو** الذي فقد عقلهُ في حربِ إسرائيل على غزّة وبقي لهُ جسدهُ الذي يتحرّك به، ويده اليمنى التي يرفعُ بها العلم عاليا، قد مكث في مستشفى العقلاء تقريبا ثلاث سنوات، لأنّ المجانين خارجًا كما يقول.

بابلو الصّحفي الوحيد الذي كان يجمعُ الدّمى الملقاة على الأرض، يُخرجُها من تحت الأنقاض، من بين يدي الموتى والجُثث، حتّى أنا أعطيتهُ لعبة لطفل قبل أن يستشهد، ولمّا سألتُ الطّفل لماذا تهديني لعبتك، قال لي أنّ صديقك **بابلو** يجمعها ليضعها في متحف عالمي.

وأذكر لمّا سأل **بابلو** الطّفل:

"لماذا أهديتني لعبتكَ وأنت لاتزال تحتاجها؟" قال له:

"لعلِّي لا ألقاكَ بعد يومي هذا، فإذا استشهدتُ تخبركَ لعبتي بآهاتي وأحزاني، ستخبركَ أنَّنا لم نلعب كالأطفال، فلعبتنا المفضّلة هي لعبة الشّهيد، هذه الدّمى ستكملُ اللّعب مكاننا"

ستخبرك لعبتي أنّ الجميع يردّدون أنشودة "حبُّ الوطنِ من الإيمان"، وأنا أقول لهم "الوطنُ واحدُ لايمكنُ أنْ يتجزَّأ، الوطنُ كالجسدِ الواحدِ، لايُمكنُ فصلُ الذّراع ولاالسَّاقِ ولاالرّجلِ عن

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

الجسدِ ليعيش كلٌّ على حدة، لا يمكنُ بترُ اليمينِ عن الشِّمالِ ولا الجنوب عن الشّرق، عبثًا تُحاولون أيَّها المارُّون على أعتابِ قلوبنَا، سترفعُ يمينُنَا رايتهَا في سمائنا لتروا وِحدتنا من دمِنَا الموحّد، وستقفُ ريحُ شمالنا في وجهِ كلِّ عدوٍّ لترسم تاريخًا من شمسها يتوهَّج، هكذا نحن أبناء الأرض المباركة"

-سأله **بابلو** من أنتَ؟ فقال:

"أنا طفلٌ ضمَّ صوته لذلك الطّفل الذي رحل عنكم قبل أعوام وترك لكم مقولته الشَّهيرة: **"سأخبرُ الله بكلِّ شيء"** وترك آلاف الرّسائل للبشرِ ضمن رسالة واحدة، وقال: "كلُّ الشُّعوب لديهم أوطان يعيشون فيها، إلا نحن لدينا فلسطين تعيش فينا"

ولأنّي استغربتُ الأمر سألتُ صديقي بابلو:

-ماذا ستفعلُ بهذه الدُّمى؟ هل لديكَ أطفال؟ فأجابني:

-كلّا؛ سأجمعها وأجعلُ لها معرضًا دوليًّا أدعو إليهِ رؤساء الدّول فقط، لا يدخُلهُ إلا الرُّؤساء.

-هل ستتحدّث إليهم الدّمى؟

-بل سيحدثُ أكثر من هذا، فكلّ دمية تحملُ لغزا وسلاحًا!

-من كان مُسالما خرج سالمًا، ومن كان خائنا خرج أعرجًا مائلا، ومن كان قاتلا للبراءة ومجوّعا لهم ومغتصبا أرضهم لم يخرج أبدا.....

جاء طفل من بين الأنقاض وخاطبني بنبرة قوّية:

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

أتركنا الآن إلى حين، لدينا موعد لتوديع صديق آخر، يسبقنا إلى زمرة الشّهداء، سنعطيهِ رسالتنا قبل أن يرتقي ليُخبر الله بها.

(نطق حينها أحد الأطفال الذين يتجاوز عمرهم 300 عام بنبرة حسرة وألم)

-آهٍ؛ يا ليتني كنتُ أعيش في زمن الصّحابة كلّما ضاقت بنا الدّنيا ذهبنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ردّ الجميع:

صلّى الله عليه وسلّم، ولكن لنا الله في كلّ وقت وحين نفرّ إليه بهمومنا، بوحدتنا، بجوعنا، بقهرنا، فهو الأعلم بنا وبحالنا.

-الله يعلم كلّ شيء، يعلم كلّ صغيرة وكبيرة، كيف ستخبرهُ أنتَ؟

-لا علاقة لك أنتَ بأمنيتي، فحتّى أمنيات الأطفال تحرموننا منها..

-افعل ما تراه مناسبًا ولا تؤاخذني أرجوكَ

-بل ما أراه صائبًا

جوزيف

-ليتني مثلكم أملك براءتكم، فنحن الكبار تملؤنا الخطايا !

ليتني أستطيع أن أخبر الله بما يختلج داخلي!

-ما الذي يمنعك يا جوزيف؟ افعل ذلك.
-ربّما قريبا.
حضر حينها **"أنيس" و "بابلو"** نظر إليّ بابلو وقال لي:
لحقتني (فأنا الصّديق الذي يذكره **بابلو** بعد فقدانه الذاكرة ومعالجته في مستشفى العقلاء هو وجوزيف، وأنا مكلّف بمرافقته لعلّه يستعيد ذاكرته يومًا، فما رآه في غزّة جعله يفقد عقله تماما)
بابلو سأفعل أنا، سأفعل...
أنيس، حتّى أنا سأفعلُ ذلك، فقلبي لا يرمّم إلا بعودتي إلى خالقي.
سأخبر الله بكلِّ شيء...
سأخبرُ الله بكلِّ شيء؛ سأخبر الله أنَّني وُلدتُ في بيئة غير بيئتكم، أخطأتُ لأنّني بشر وأذنبتُ وتمرّدتُ على عاداتي وتقاليدي، وفي كلِّ مرّة كنتُ أهرعُ إليكَ يا الله بقولي:
ردّني إليك ردًّا جميلا.
سأخبر الله أنّني أخطأتُ في حقِّ نفسِي، فلم أهبها حقّها من العبادة والرّاحة النّفسيّة، لترتقي الرّوح إلى عالم الصَّفاء والنّقاء، فهذا العالم يا صديقي أصبح مُكهربًا، الحرب، القتل، الخذلان، الطّغيان، الحرائق، الكلّ مُصاب بالضّغط، بداء السّكري، الوباء، الأمراض تتناثر في كلّ مكان والموت يحصد الأرواح هنا وهناك.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-سأخبر الله أنّ البشر متلوّنون، يملكون ألف قناع، يقابلونك بوجهٍ، ويعملون معك بوجهٍ آخر، وفي غيابك تُفتقد تلك الوجوه.
-سأخبر الله أنّني تعبتُ وأنا أحاول أن أفهم بعض البشر، فطيبتي غير طيبتهم، وقلبي غير قلوبهم ونيّتي غير نواياهم.
-**سأخبر الله** أنّني تحدّيتُ كلّ الظروف المؤلمة التي مررتُ بها، وواجهتُ كلّ الصّعوبات إلى أن وقفتُ من جديد على رجلٍ من حديد ليقيني أنّ الله معي.
-**سأخبر الله** أنّني أعاملُ البشر بنيّتي وبطيبة قلبي، فمن كان في قلبه غير ذلك فاجعل كيده في نحره.
-سأخبر الله أنّ العائلات تباعدت ولم تعد مجتمعة كما كانت سابقا، فلا بركة حلّت ولا خير عمّ بانفصالهم.
-سأخبر الله أنّ الجار ظلّ غريبًا، يبيتُ على الطوى ولا أحد يدري بحاله ولو مات جوعا.
-سأخبر الله أنّ الأخ لم يعد يشدّ عضد أخيه إلا قليلا.
-سأخبر الله أنّ بعض الأبناء عقّوا آباءهم وأمّهاتهم فلا فلاح ولا نجاح كان حليفهم.
-سأخبر الله أنّني عبد ضعيف أخطأ وأذنب وأتوب إليه، لا حول لي ولا قوّة إلا بك يا الله.
-**سأخبرُ الله** عن الأمِّ **"جودي"** التي كانت تتمشَّى مع ابنها وفجأة صار قصف عنيف على البيوت، وكان يلعبُ بالتّراب،

مسكتهُ من يدهِ وهي تجرّه من الأرض، تخبئه من القصف المفاجئ، تقول بلسانها:
"صرتُ أجري لحدّ ما وصلت لمكان ما فيهوش قصف، تنفّست وجيت أنزلهُ على الأرض لاقيته بدون رأس.
حينها أصبح فؤاد الأمّ **"جودي"** فارغا من كلِّ شيء إلا من ذكر ابنها، تردّد اسمهُ في كلّ مكان، جودي، جودي، جودي
-تلومُ نفسها وتعاتبها: كيف أفلتُ ابني ولم أشعر؟
عُدتُ أدراجي أبحث عن رأس ابني، فلم أعثر عليه، فالرُّؤوس كثيرة، والأذرع كثيرة والأرجل كثيرة... والضّمائر الحيّة قليلة، بل تكاد تنعدم.
يدي لحدّ الآن لا تزال ترتجفُ من هول ما رأيت، لا تعرف التوقّف، عجز كلّ الأطباء عن علاجي...
-هي الحربُ لا تُبقي ولا تذر.
بابلو
الموت يحصد الأرواح هنا وهناك.
أنيس
-لا؛ توقّف إلّا هناك، هنا يختلفُ الأمر، كلامك صحيح الموتُ يحصد الأرواح في كلّ مكان، لكن الطّريقة تختلف، فها الشّهادة، هنا العزّة والرّفعة في أرض الشّهادة، أما هناك فيموتون ميتة عادية.

-الموت يحصدُ الأرواح في نفس المكان، ذلك جندي إسرائيلي مغتصب والآخر شهيد دافع عن أرضهِ والعزّة للمدافع، فلا تقارن بين من مدافع وبين كيان غريب مستبدٍ.
لستُ وحدك يا **بابلو** من يريد أن يخبر الله عن آلامه، بل كلّ واحدٍ فينا يريد ذلك، وأنا أوّلكم لأنّي الآن أشعرُ أنّني وُلدتُ معكم من جديد، هل سيقبلني الله الآن إذا أقبلتُ عليه؟

أنيس

الله يقبلك كلّ حين يا بابلو، لأنّك عبده، هو من أوجدك في هذه الدّنيا، أقبل عليه وسترى العجب العجاب.

بابلو

-بل أريد راحةً لنفسي وبالي، لو أعطاني الله الفرصة سأخبره بأشياء كثيرة خبأتها عن البشر، ولكنّه يعلمها وحده.
سأخبر الله بكلِّ شيء يا **جوزيف،** سأخبر الله أنِّي أذنبتُ وأذنبت و أذنبت وأنبتُ إليك يا الله، فلست نبيًّا لأعصم من الخطأ، تمنّيت لو لم أكُ شيئا حتّى لا أذنب في حقّ نفسي وأحمّلها من العذابِ ما لا تُطيق.
سأخبر الله أنّني تمرّدتُ على عاداتي وتقاليدي فوجدتُ نفسي ضائعًا في دهاليز هذا الكون وفي مغرياتهِ، كيف أنسى ذلك؟
- هل يمكنني إلغاء كلّ ذلك من حياتي؟ هل يمكن أن أحذف هفواتي كما أحذف الأشياء غير المرغوب فيها من هاتفي؟
-ليتني أستطيع فعل ذلك!

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-لا يمكنك ذلك طبعا، فأنتَ كبير بالغ، سيخبركَ بما فعلتَ وفعلتَ وفعلتَ، فصحيفتك قد سجّلت كلّ شيء...

(تتدخّل الطفولة)

أمّا نحنُ الصِّغار البراءة لم نفعل شيئا سوى أنّنا ولدنا ونحن نسمعُ صوت المدافع، صوت الشهادة تنطق من أفواههم، سيسمعنا الله حينما نخبرهُ عنهم...

ماذا لو تركتُ لك أنتَ أيّها العابر هذا البياض لتكتب ما تريد، ماذا لو تركتُ لك هذه الصّفحة فارغة لتخبر الله بكلّ ما يجول في خاطرك، بكلّ آلامك وكلّ أحزانك وكلّ أفراحك وكلّ هفواتك ليغفرها لك.....

سأخبر الله بكلِّ شيء

سأخبرُ الله أنّني.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

(يتدخل أحد الشّباب مراد)

سأخبر الله أنّني كبرتُ وأمّي تعلمني مكارم الأخلاق، علّمتني أنّ الأخ سند لأخيه مهما عصفت بنا الرّياح فإنّنا نشدّ بعضنا البعض، وعندما كبرت ما وجدت ذلك إلا قليلا.

-هل كذبت أمّي؟ فأمّي لا تكذبُ أبدا، بل تجمّل صورة إخوتي في عيني، ها أنا أعيش بين أنياب الموت الذي اختطف أمّي وهي تحضنني، أمّي أسفل الجدار، أسفل الركام خبّأتني بين ذراعيها ووضعت المفتاح في يدي وأغلقت يدي وجعلت

ظهرها يتصدّى لقنابلهم التي قصفت بيتنا، شعرتُ بدفئها وحنانها ووداعها الأخير.
لا تزالُ الأحداثُ تتراءَى لي كأنَّني أمامَ شَاشَةِ عِملاقةٍ لعرض فيلم لن تتكرَّر حلقاتهُ أبدا.

(تتدخّل أمّ أنيس)

عُيُونُ الأمِّ مهمَا صغرت، فهي بالنسبةِ للذَّاكرةِ كوكب الأرض يعكسُ همجيَّة المستعمِر في الشُّعوب التي تعشقُ الحريَّة، فعشقُ الأرضِ مُنذ الأزلِ نارُ تحرق العاشق، إلاَّ أنَّهُ يجدُ نَشْوَتَهُ في ذلكَ، فالحُرُّ يَفُكُّ عنه القيودَ والسَّلاسلَ والأغلالَ، ولا يرضى أن يعيشَ مُقيَّدا حتَّى وإن وَضَعْتَ في فمِهِ ما لذَّ وطاب، ولو وُضِعَتْ في كِلتَا يَديْهِ كنُوز الأرضِ، وما أنت بواضعِهَا أيُّها المستعمر...

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

تتلألأ عَيْنَي الأمّ بالدُّموعِ أمام ابنها **أنيس** فيُقبل على أمّه ويعانقها بحرارة، فتَظْهَرُ لهَا الأحداث كأنَّها أمام عرض لأكبر الشَّاشات وأصدقها، احتارت الأمُّ من أين تبدأ؟ فقالت وحين تتذكّر شهيدا توأم **أنيس**:

ليتني ذهبتُ أنا وبقي هو، فأنا لا أستطيعُ العيش دونه، أسمع صوتهُ في كلّ مكان، صوره تتمثَّل لي، لازلت أشتمّ ملابسهُ، أتعرفُ أنّني أضعُ قطعة من ملابسهِ على قلبي، فكلَّما تذكرته أمسكُ بيدي على قلبي وأترك دموعي تغسل ما بي من أحزان.

-لست الوحيدة يا أمّاه

-فمنك آلاف الحرائر من تعيش ألم الفقد وتكتوي به؟

-هوّني عليكِ أمّاه

-لا أظنُّ أنّني سأطيلُ البقاء بعدهُ، ليتهُ يخبرُ الله أنّني أريد أن أكون معه، أريدُ الالتحاق بهِ سريعا.

هوّني عليك أمّاه، فأنت فقدت ابنك **و"مراد"** فقد أمّه، انظري إليه كيف يخيّم الحزن على ملامح وجهه.

لستِ وحدك يا خالة من يريد أن يخبر الله بكلِّ شيء، كلّنا نحن البشر لدينا آلام وآمال لو تجلَّت للجبال لخرّت، فحتّى أنا ضائع دون أمّي، ليتني أستطيع إخبارها بما أشعرُ.

-ضائع أنا يا أمّي أبحث عنكِ في عيون كلّ النّساء...

-أشتهي قهوتك المعطّرة التي لا تتقنّ فنّها من بعدك كلّ النّساء...

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-أشتهي نظرةً منك حين فرحي، فأنتِ من كان يفرح لإنجازاتي أكثر من فرحي...
-أشتهي أن تفتحي لي بابك قبل أن أطرق الباب، وكلّما سألتكِ:
-كيف عرفتِ أنّني قادم؟ فتقولين:
-شعرت بدقّات قلبي تتسارع فعرفتُ أنّ خطواتك تقتربُ من الباب فأسرعت لفتحه قبل أن تدقّ...
-واليوم يا أمِّي لم يعد لبيتنا باب أفتحهُ ولكنّ المفتاح لا يزال بيدي يا أمّي

سأخبر الله بكلِّ شيء يا خالة

سأخبر الله أنّني وجدت نفسي ضائعا دونها، غارقًا في التّفكير، سارحًا في هذا الكون الفسيح، الحزنُ ينحتُ تماثيله على وجهي الجميل، لم تعد لي رغبة في الحياة بعدها، ذهب ذلك الشَّغفُ الذي كان يحملني كالأمواج وسط البحر معها، من يراني يظنُّ أنّني أبلغ من العمر عتّيا، وأنا في عمر الثلاثين، خالطَ المشيب شعري دون إذن منّي، فقد باغتني في غفلةٍ مِنّي، وأنا لازلت في ريعان الشَّباب، إذا ابتسمتُ ضحك الدّهر من فجوات أسناني التي لا أعرفُ كيف سقطت وأين سقطت؟
لربّما أكلتها مع بقايا الأكل...
(بينما بابلو وجوزيف ومراد والأمّ والشباب يتذكرون بقايا الألم يظهر أمامهم ذلك الطفل)
بابلو

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

إنّه هو، إنّه هو من كان في الطائرة!
توجّه الطفل البالغ من العمر 300 عام نحو مراد جلس بجانبه، فقال مراد:
لم أر هذا الطفل من قبل.
-أنا أجلس معكم منذ بداية الحديث، لا يراني إلا له بصيرة.
مراد
ظننتُ أنّنا نجلسُ لوحدنا، حتّى سمعتُ صوتهُ يسألني وأنا لازلت أبحثُ عن ذاتي:
-ما الذي حدث؟ فقلت:
انظر إلى حالي لا مأكل ولا مشرب، لا بيت يأويني، مدينتي أضحت ركامًا، هموم اكتسحت وجهي وهموم أرقتني، لا مستقبل، لا عمل، لا سيارة، أين المفرّ؟ فقال:
-هل أدلّكَ على جهة لو قصدتها لن تردّك خائبا والله.
(وقفت بسرعة البرق وسألته)
-ومن أينَ لكَ أنتَ المعارف أم أنّك تهزأ بي أيّها الطّفل؟ فقال لي: أنا الشهيد العائد من هناك، قلت له: ليس لي مزاج للمزاح.
-لا عليكَ منّي، سجّل الرّقم واذهب له في الوقت الذي يطلبكَ، لا بعدهُ ولا قبلهُ، فلا يقبل التَّقديم ولا التَّأخير دون سبب.
-وكيف يطلبني وأنا الذِي يطلبهُ؟
-يطلبُكَ قبل أن تطلبهُ؟
-إليّ به، ماذا تنتظر.

سجّل: 2، 2، 4، 4، 3، 4
أتهزأ بي؟!
-ما هذا الرّقم يا رجل؟ هل يحتاج لمفتاح دولة ما؟
-ألم تفهم بعد؟ يضمّ كلّ المفاتيح.
-لا لم أفهم شيئا.
-تأكّد من الرّقم أين رأيتهُ؟
-سأمرّ عليك غدا إن شاء ونتّصل به مع بعض.
-متّى تمرّ عليَّ؟
سأمرّ عليكَ فجرًا
-اتّفقنا، ستجدني في هذا المكان.
حضر الطفل البالغ من العمر 300 عام، فجرا ذهبنا إلى المسجد ولمّا خرجنا قلت له هل سنتّصل به الآن أم نذهب إليه؟ قال اتركها بعد الفطور أفضل.
حضر الطفل مرة ثانية بعد الفطور سمعنا آذان الظهر ذهبنا لصلاة الظهر، وما إن سلّمنا استدار إليّ وقال: نتصل به الآن.
نظرت إليه في دهشةٍ وذهول وقلت له: بل نؤجلها بعد العصر، لعلّه خير
حان وقت العصر ذهبنا للمسجد للصَّلاة والشَّاب متذمّر لم يشعر حتّى بصلاته، خرجنا عند الباب فقالَ لي: الآن نتصلُ به لقد تعبت من رفقتك واستهزائك، فقلت له:

والله لا أستهزأ بك. ثمّ قلت له: ليس بعد، لم يحن الوقت بعد، لست مستعدا لذلك، نؤجلها بعد المغرب.
صلينا المغرب فسألني وهو متعب مرهق كأنَّه غريق يتشبثّ بخشبة لكي لا يغرق.
سينفذ صبري، فقلت له: بعد العشاء نتصل به.
فقال لي: وهل يكون متفرغًا لي، فقلت: هو ينتظركَ، إذن سأمكث في المسجد لوقت العشاء، فأنا متعب مرهق، ليس لي أحد ألجأ إليه الآن سوى ربّي، فهو خالقي وأعلم بحالي.
ابتسمت له ومضيت إلى حال سبيلي، ولمّا اقترب وقت العشاء أقبلت عليهِ فوجدتهُ فاتحا المصحف يقرأ ولم ينتبه لوجودي.
ألقيتُ عليه التّحية وما هي لحظات حتّى رُفع الآذان لصلاة العشاء، أقمنا الصَّلاة مع الإمام، فقال لي لا أريد مُساعدة من أحد سلمت أمري إلى الله، فوضت أمري إلى الله، ابتعد عنّي لا أريد منك شيئا دعني وربي
فوضتُ أمري لخالقي، فقلت له، الآن حدث الاتّصال، فنظر إليَّ وهو يتعجّبُ فقلت:
حدث الاتّصال، حينها أدركتُ الأرقام السّابقة: 2-4-4-3-4
2 الصبح، 4 الظّهر، 4 العصر، 3 المغرب، 4 العشاء.
إنَّه الرّقم الوحيد الذي لن يردّك خائبا يا صديقي، تتذلّل إليهِ ولن يراك أحد، أخبره بكلّ شيء وسترى كيف تتغيّر حياتك ويتحسّن حالك.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

ثمّ قلت له، وإذا تعذَّر عليك الأمر له رقم ثان: 99، فابتسم الشّاب ومضى ليخبر الله بطريقته.

أخبروا الله أنّكم ضعاف ليقويكم، أخبروا الله أنكم جياع ليغذيكم، أخبروا الله أنكم عطشى ليرويكم من ماء زمزم، أخبروا الله أنّكم ظلمتم لينصركم، أخبروا الله بكلّ شيء فهو يعلمُ كلّ شيء.

الفصلُ الثّاني

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ أسناننا كانت تصطكُّ من البرد وهم يشاهدوننا ولم يبعثوا لنا بطانيات، ربّما ظنّوا أنّ أجسادنا غير أجسادهم، وجلودنا غير جلودهم.

2- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ أمعاءنا من الجوع كانت تؤدّي سنفونية لم يضعوا لها عنوانا بعد، لتتصدّر أعلى الترندات.

3- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّهم نسوا أن يدخلونا موسوعة غنيس في الصّبر والتجلُّد، ولكنّنا لسنا بحاجةٍ لذلك، لأنّنا سندخلُ الجنّة ونكون طيورها.

4-- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ الضّيوف أصبحوا يأخذون موعدًا مسبقًا كموعد الطّبيب، فما عاد الضّيفُ ضيفًا وما عاد البيتُ بيتًا، وما حلّت بعدها البركة.

5-- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ هارون أخي نسيَ أن يشدّ عضده بي، ولكنّي لازلتُ أنتظره عند عتبة الدّعاء لعلّه يسمعُ ندائي.

6- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّهم يقولون ما لا يفعلون، وإذا فعلوا أخذوا ألف صورة للمشهد، من كلّ زوايا، ونسوا ما تشعر به قلوبنا وزوايا حدودها.

7-سَأُخْبِرُ اللهَ عن الذين تعجّبوا مني، كيف تخبر الله؟ فقلت: ألتقيه في كلّ صلاة فيصعد إليه الكلم الطيّب.

7- سَأُخْبِرُ اللهَ

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

نرجُو منكم المعذرة لأنّكُم ضيوف رواية أبطالها صعدت أرواحهم إلى السّماء وأعمارهم لم تتجاوز اليوم أو اليومين، أو على أقصى تقدير عشر سنوات، فأصبح طعامهم غير طعامنا وشرابهم غير شرابنا...

-كم اشتهوا حفنة طعام ولم يتناولوا إلا قليلا منها؟

-كم اشتهوا شربة ماءٍ صافية وحصلوا على قطرات من صهاريجٍ بعضها أصابه الصدأ؟!

-كم اشتهوا جرعة ماء دافئ في شتاء باردٍ؟

-كم اشتهوا لتضامن من إخوتهم ليشدّوا أزرهم؟

-كم اشتهوا أن تفتحُوا لهم قلوبكم وبيوتكم؟

-كم اشتهوا أن تفتحُوا حساباتكم البنكية لدعمهم؟

فلا تنتظرُوا منهم أن يبعثوا لكم بمائدة من السَّماء، فلن يضيّقوكُم طعامًا، لن يشربوكم ماء من كوثر نبيّهم، بل سيذكّرونكم بأمنياتهم التي لم تكتمل بعد، فقد أخبروا الله بكلِّ شيء.

كلماتي تحملُ لكم في يمين كلّ حرفٍ صرخة طفل مدوّية أشبه بصرخة يوم القيامة، وفي يسار كلّ حرف أحداث نهاية العالم، فقد انتهى العالم فعلا يوم صرخَ ذلك الطّفلُ الصّغير وهو يرفع بصره نحو السّماء قائلا لكم وهو يُحتضر: **"سَأُخْبِرُ اللَّهَ بِكُلِّ شَيء"**

رحلَ ذلكَ الطّفلُ الصّغير وهو يحملُ رسالتهُ التي عرجت إلى السَّماء فلا تلوموه إذا حلَّ بكم الوباء ولاحقتكم اللّعنة، فقد أخبر العالم كلّه أنّ ذراعهُ بُتِرت وهو يلعبُ لعبة الشّطرنج فوق التُّراب ولم يسمعه أحد، ولم يعبأ به أحد، سقطت أصابعهُ الصّغيرة في لوحة الشّطرنج فتلقّفها الجميعُ الأخ والعدوّ وتداولوها لإتمام اللُّعبة القذرة.

-لا تقولوا لي أنّكم لم تروا ولم تسمعوا؟

- هيّا أجيبوني أم أنّني المجنون الوحيد في هذا العالم الذي لم يعقل بعد، المراسل الصحفي بابلو الذي فقد عقله في أرض الحرب؟

جوزيف

-هاي توقّف لحظةً ودع هذه المشاعر جانبًا!

-الكلام هنا غير مسموح به لكم يا **بابلو** فقد انتهت فترة حياتكم، أنتم هنا الأحياء الأموات، الجسد يمشي فقط، أمّا القلوب فقد ماتت والضَّمائر أعدمت، والأطفال هم الأموات الأحياء، فالكلمة لهم وليست لكم، دعني أكمل ولا تقاطعني يا رجل.

-أخبركم ذلك الطّفل الصّغير أنّه سيخبر الله بكلِّ، أليس كذلك؟

-استهزأتم به، ظننتم أنّه مجرَّد كلام أطفال، ألا تعلمون أنّ الملائكة تنطق من أفواه الأطفال؟

-الملائكة من نور، وهذا الطِّفل جسد وروح.

-هل أرعبتكم عبارتهُ أم أنّكم نسيتموه؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

بابلو

-لا هذا ولا ذاك، فالعالم الذي تسرقُ منه الابتسامة في وضح النّهار أوشك على نهايته، فحينما تغتال الطفولة أمام أعيننا فلا حياة لمن يبصرُ ولا يبصر، فالحرب التي قتلت النّخوة والشّهامة من قلوب البشر تعلنُ نهاية العالم الذي يُعاني مخاض ولادة عسيرة، فالحرب في أوجّها وقصص الحبِّ لم تبلغ ذروتها، وأعمال الخير والشرّ على قلّتها وكثرتها أصبحت صورا مبثوثة لا نعرف صدقها من كذبها، ولكنَّها تتفرَّد هذه المرّة بإعطاء الكلمة للأطفال لا للكبار.

-لازلت تقول: الصّغار

منذ متى كانت تعطى الكلمة في المجالس والمؤتمرات للصِّغار؟

-من قال لك أنّهم صغار في عقولهم؟ فعمر الطّفل هنا يتجاوز 300سنة وليس الثّلاث سنوات، ألا تعلم كم عمر الطّفل في الحرب؟

-أعمار الأطفال في الحروب تقفز إلى مئة ألف أو يزيدون !

أكمل معنا وستستمع العجب العجاب وتكشف السرّ الذي أخفوك عنك طيلة حياتك.

سيخبركم أطفال غزّة ما لم يستطع كبار العالم من رؤساء وقادة قولهُ علنًا، فالكلمة كانت من أفواه الكبار في كلِّ المحافل الدّولية ولكنّها منمّقة مزركشة بخيوط ذهبيّة، جلّها كاذب، بعض

الكلمات بقيت تحت اللسان حبيسة ما بين الأسنان، مخبأة خوفًا من سطوّة القويِّ على الضَّعيف.

أنيس

"الكبار إن لم نقل جلُّهم يختبئون داخل معاطفهم الفاخرة، يخافون من ربطة عنقهم المطوّقة عليهم، أغلبهم أصبحوا يخافون كشفَ المستور المفضوح في كلّ القنوات الفضائيّة إلا في المحافل الدّوليّة ينزلون عليها السّتار"

ستكون الكلمة للأطفال فهم من سيخبر الله بكلّ ما فعلهُ الكبار، ما عليك إلا أن تسجِّل حُضورك إن كان لك حضور في هذه الحياة؟ فإن لم تكن لديك الشّجاعة الكافية لقول كلمة الحقّ فأغلق عليك صفحات هذه الرّواية، لأنّه سيزورك أطفال غزّة كلّهم ويحاسبونك على صمتك...

-هل تظنّ أنّني أكذبُ عليك يا بابلو؟

-سيزورك أحدهم في منامك فاستقبلهُ بالأحضان وافتح ذراعيك عاليًّا وانتظر حظّك إذا كان سيعانقك، فعطره من عطر الجنّة ومسكه من مسك الجنّة....

-الله، الله، الله

بابلو

-ماذا تقول؟

-هل أنت عرّافًا تحتاج لمال وتريدني أن أملأ يدك؟

-كلا، لا أريد منك شيئا، فالكلمة ليست لي ولا لك، بل هي لهم!

-لا أظنّ أنك تملك الشّجاعة لتكمل معي أو حتّى باستطاعتك رؤية أطفالهم في المنام يا **بابلو؟**

-هل تستطيع رؤية النّور؟

انظر إلى المنزل إن ثبت على حاله فإنّك تستطيع رؤيتهم والتّجلي أمامهم، مع أنّي لا أعتقد ذلك**!**

-هل تظنّني نبيًّا ليتجلّى لي ذلك؟

أنت تذكّرني بقصّة الطّفل الذّبيح يا أنيس التي وردت في القرآن الكريم، حين رأى إبراهيم عليه السّلام في منامه رؤيا بأنَّه يذبح ابنه إسماعيل.

-ومن أين لك هذا يا بابلو؟

-أخبرتك مسبقا أنّ جدّي قرأ لي الكتب السّماوية، أعرف الكثير عن قصص الأنبياء.

سأخبرك أنا بالقصّة يا بابلو حتّى لا تخطئ في سردها

"استشار النبي ابنه في الرؤيا، فوافق إسماعيل لأنّ رؤيا الأنبياء حقّ ويجب تطبيقها، وعندما ألقى إبراهيم ابنه على وجهه لذبحه، فداه الله بذبح عظيم، أُستبدل حينها الذّبح "بكبش أبيض، أعين، أقرن، رآه مربوطًا بسمرة في ثبير"

قال الله تعالى عن عبده وخليلهِ إبراهيم عليه السّلام: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا

إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ(106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(107)

لا تزالُ الطّفولة تمتحن مُنذ الأزل، ولا يزال الآباء والأمّهات يمتحنون في غزّة، صابرون على البلاء، يسيرون على نهج الأنبياء ويتعلّمون الصّبر من قصصهم، هم على يقين تام أنّ الله سينصرهم ولو بعد حين وأنّ أبناءهم قدّموهم قربانا لله في سبيل حماية مسرى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحماية أرضهم من الغزاة، هم على الأقلّ صامدون ونحن لم نستطع حتّى قول الحقيقة التي نراها، فقد تعوّدنا المشهد!

وأنت كذلك تعودت المشهد؟ !

-أنت لم تجرؤ حتّى على قول كلمة حقٍّ في الحياة، فقل على نفسك من الآن:

"إنّا لله وإنّا إليهِ راجعون"

فلا أحد يستحقّ الحياة إلا من كان نقطة في بحر خريطة هذا العالم المشوَّه جنينه، ألم تقرأ كتب التاريخ والعظماء كيف أخرجوا المستعمر من بلدانهم؟ !

-الآن، هل تملك الشّجاعة لتواصل معنا أم أنّك ستغادر صفحات هذه الرّواية يا بابلو قبل أن تكتشف السرّ وتعرف حلّ اللغز؟

-سأبقى هنا، إلى النّهاية.

-إذن، سجِّل حُضُورك.
-أين؟
-على أرض الحربِ.
-كيف؟
-لا طاقة لي بها.
أنيس
-تبًّا لك تقول ما لا تفعل.
-كيف تريد المضي قدمًا؟ الذين يخافون محكوم عليهم بالإعدام، فالتّاريخ لا يذكر الجنود بل يذكر القادة فقط، كن قائدا على نفسك وتغلّب على خوفك وكسلك وشيطانك.
- من أيِّ الأجناسِ أنتَ؟
-من أيِّ قارَّة أنت؟
- هل أنتَ إنسان؟
-أم مجرّد روبوت يقرأ كلماتي ويمرّ مرور الكرام؟
-أنا إنسان يا **"أنيس"**، كفاك عتابا ولوما...
- هل تملك قلبًا؟
-من هي ليليا أشعرُ أنّني أعرفها، لمّا سألت: هل تملك قلبا؟ شعرت بألم في قلبي.
جوزيف
-هي خطيبتك يا **بابلو**
خطيبتي، منذ متى يا جوزيف؟

منذ ثلاث سنوات، ولماذا لا أذكر الكثير عنها؟
ستتذكّرها، إنّها طبيبة.

أنيس

يمكنك أن تستمع لدقّات قلبك يا **بابلو** لتتأكّد من ذلك، هل أحببتَ يومًا من قلبك؟

فما سمِّي القلب قلبًا إلا لأنّه يتقلَّب من حال إلى حال ! وها أنت تتقلب من سؤال إلى سؤال.

(تدخّل الطفل البالغ من العمر 300عام)

-من أيِّ مكانٍ تقرأ حتّى لا أتعبك وأنا الطّفل البالغ من العمر 300سنة؟ ولم تظهر على وجهي تجاعيد الزّمن، ألعابي لا تزالُ في يدي، أمسكُها وحينَ أستشهد سأتركها لكم لتضعوها في المتحفِ وستكلّمكم هي عن أسراري ومعاناتي وجوعي وتنهيدات أمِّي.

-هل أنتَ الطّفلُ الذي تحدّث عنه ذلك الرّجل؟ هل أنا في حقيقة أم منام؟

-أرجوكَ أخبرني أكادُ أجنّ.

-هل أنت حقيقة أم خيال؟

-لن أخبرك واصل معي السّير، فقد أعطيتني وعدا في بداية الرواية لن تعود أدراجك، وإن أخلفتَ وعدك سأزورك في المنام لتكمل قراءة الرّواية معي، سأزورك يوميا، كلّ ليلة بعدد صفحاتها، وأذكرك بنداء الوطن.

-كيفَ يحيا الوطن؟ والعدوُّ يَزْحَفُ رُويدًا رويدَا ليبسُطَ رِداءهُ الملطَّخ بالدِّماءِ، إنَّها دماءُ البراءةِ التي لم تسلم من مجازرِهِ، دماءُ الرِّجالِ الذينَ استشهدُوا من أجلِ هذا الوطن، ودموع النِّساء التي اختلطت بالدِّماء فَقْدًا ووجَعَا، فحتّى الشَّجر والحجر لم يسلمَا من الرِّداء اللَّعين الذي نفث سمَّهُ وتركَهُ وراءهُ.

-"هل رأيتَ ذلك يا **بابلو**"

-ماذا تريد منّي بالضبط أيّها الصّغير؟

-أنا لا أحتاج لبصركَ أحتاجُ بَصيرتك أيُّها الرّجل التي جُبلتَ عليها ولكنّها معطلة عندك وعند البعض، فرياضة القلب والرّوح ليست كرياضة البدن!

-دعنا من هذا كلِّه وقل لي:

-من أيِّ نقطة في خريطة العالم أنتَ؟

-أنا إنسان ! وفقط لا تقلْ لي عربيّ أو مسيحي أو هندي، يكفيني أنّك إنسان ولكنّك لم تجبني على سؤالي:

- من أيِّ موقع جغرافي تنتصر لقضيَّتي بل دعني أقولُ إنسانيَّتي؟

- لا يهمُّ إن كنتَ مسيحيًّا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا أو مُسلما، فأنت خلق الله تبحث عن ذاتك الضّائعة بين الصّفوف.

-أسمعك تحييني كلّ صباح بطريقتك وأنا أحييك دوما بالسّلام.

-أليسَ هذا كافيا يا "دوهي" ؟

بابلو من هو **"دوهي"؟**

إنّه بجانبك يترصّد خطانا ونحن نتحدّث، أظنّه يعمل مع الكيان الغريب.

-من أنتَ؟

-أنا جارِكَ الذي على اليمين واليسار والشَّمال والجنوب والشَّرق والغرب.

-فما عادت شمسُ العربِ تسطعُ على الغرب !

-"دوهي"

-ولماذا تقلبُ حروف اسمي عند مناداتي؟ وتبدأ من آخر حرف؟

-أستحي أن أناديكَ بهِ كما هو، لابدّ أن أقلبهُ، كما قلبتم المعادلة اليوم، سأعيده لسيرته الأولى عندما تعودون من حيث أتيتم.

-أيّ مُعادلة؟

لم أدرس الرّياضيات إلا من أجل حساب المعادلات.

-يوم دخلت الأرض المباركة حافيًّا عاريًّا مُشرَّدا واستقبلكَ أهل الدّار، واليوم انقلبت المعادلة فشرّدت من أواك وانتعلت حذاءه.

-بأيِّ حقّ يا دوهي؟

دوهي

وهل ستمنعني أنتَ بشعاراتك التي لا تسمنُ ولا تغني من جوع، ولم يستطع منعي أحد لحدّ السَّاعة؟

-من أنتَ؟

"أنا الصحفي بابلو الذي فقد عقله وهو الآن يقبع في مستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"

حالكَ أشبه بمشرّد فقدَ عقله يا بابلو ! انظر إلى ثيابك يملؤها الغبار، وانظر إلى الرّكام في كلّ مكان، إلى النّساء، إلى الدّمى المرميّة هنا وهناك.

بابلو

أنا الشّاهد الأوّل والطّفولة الشّاهد الأخير على مجازركم.

-هل ستشهد ضدّي؟ وأنت ابن جلدي، سأفعل فأنت لا تمثّلني، سأنتصر للطفولة.

-سأشهدُ على جرائمك !

-العالم كلُّه يرى ولم يحرّك ساكنًا !

-من أنتَ حتّى تشهد؟

- أنا الصّحفي "بابلو" من قناة 2024

آه تذكّرت الصّحفي **بابلو** الذي فقد عقله لمِا رآه من جرائم الحرب في قطاع غزَّة.

-عن أيّ طفولة تتحدَّث يا **بابلو**، سنفعلها مرّة أخرى مثلما فعلها فرعون لمّا قتل كلّ صبيّ يولد.

-ستنتصرُ الطّفولة في الأخير فملائكة الرّحمن يحرسهم الرّحمن!

-الطّفولة ! ها ها ها ... قتلنا آلاف الأطفال، وما أبقينا إلا على الدّمى وحتّى تلك الدّمى سنحرقها فلا نترك لها أثرا.

"عُدْ إلى بلادكَ يا دوهي"

-ههه بلادي، الجميع يعرفُ أنّه ليس لنا بلاد، بل كنّا شتاتا هنا وهنا، ففكّروا في مكان يجمعنا نحن "اليهود" ولم يجدوا لنا أجمل من "فلسطين".

-أتعرفُ أنّك ذكرتني بعبارة مستفزّة قالها المستعمر الفرنسي للجزائري، أتعرفها يا **أنيس؟**

طبعا أعرفها، **"عُدْ إِلَى بِلَادِكَ يَا بِيكُو"**

يا لها من عبارة مستفزّة، استعملها الفرنسيون لشتم الجزائريين الأحرار أصحاب الأرض التي استعمرها الفرنسي وحاول استنفاذ خيراتها، كانت ترمز إلى العنصرية والاستعلاء، محاولة للتقليل من شأن الجزائريين وجعلهم يشعرون بالدونية، فالتّاريخ لا يزال يذكر أنّ فرنسا لمّا دخلت الجزائر سنة 1830 وجدت 99 %من الشّعب الجزائري يُحسن القراءة والكتابة، وقد قالها الرحالة الألماني جورج فيلهام شيمبر عند زيارته للجزائر سنة 1831م: " لقد بحثتُ قصدًا بين السُّكان فى مدن الجزائر عن شخص واحد يجهل القراءة والكتابة، غير أنّي لم أعثر عليه، في حين أنّي وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلَّما يُصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشّعب، هكذا وجد الرّحالة الألماني الشّعب الجزائري وقد وثّق هذه الشّهادة.

المستعمر الفرنسي وجد الجزائري "أنيق في لباسهِ العربيّ، متشبّث بهويّته ودينه، في حين كان أغلب الجنود الفرنسيين همجيين أمّيّين"

كانت كلّ الزّوايا والكتاتيب تنبض بالحياة القرآنيّة، لم تكن توجد عائلة فيها طفل إلا ودرجَ في الزّوايا والكتاتيب وقد اعترف بهذا المستشرق الإسباني "John M. Roberts" في كتابه "ilustrada Historia universal "، حين قال معترفا على لسان فرنسا: "أنَّ فرنسا أرادت أن تبيدَ الشّعب الجزائري كاملا كما أبادت أمريكا الهنود الحمر، ولكنّها اصطدمت بمجتمعٍ تشكَّل من بوتقة الحضارة الإسلاميّة".

وهذا ما يريد اليهود من أرض فلسطين ومن أطفال فلسطين، فحين يقتلون أطفال فلسطين فإنّهم يخططون لسنين المقبلة، يريدون القضاء على النسل الفلسطيني، يخطّطون للقضاء على المسجد الأقصى وبناء كنيسة مكانه، ولكنّهم لن يفعلوا، فهم شعب الله المختار، حريّ بنا أن نعود لعبارة **"عُدْ إِلَى بِلَادِكَ يَا بِيكُو"** لنقولها لإسرائيل ولكن شعب بدون بلد، إلى أين سيعود؟

نحنُ من ندرك قيمة الأرض وندرك ما تحمله هذه العبارة من تشويه للتّاريخ، فلا أحد يدركُ السرَّ وراء نجاح الثَّورة التَّحريريَّة الجزائريَّة ما لم يدخل زاويةً لحفظِ القرآن فيدرك حفظ البلدان، ويدخل خيمةً ويركنُ في أحدِ زواياهَا، فيدرك ما

يثبّتُ الأوتاد ويقيمُ الأعمدة، لا أحد يدرك السرّ ما لم يعرف ما بفؤادِ الجزائريّ من رباطة جأش وبسالة وتجلّدٍ.

تلك العبارة القذرة استخدمها المستعمرون الفرنسيون خلال فترة (1830-1962)، "بيكو" كإهانة عنصرية موجهة إلى الجزائريين والعرب بشكل عام وبخاصة شعوب شمال إفريقيا. الكلمة كانت تحمل دلالات تحقيرية واستهزائية، وترمز إلى النظرة الدونية التي كان المستعمرون يروّجون لها اتّجاه السُّكان الأصليين، في حين أنّ هذا اللفظ "بيكو" كان موجّها لهم.

يُعتقد أن "بيكو" مشتقة من كلمة "bougnoule" أو غيرها من الكلمات المهينة التي كان يستخدمها الفرنسيّون للإشارة إلى العرب وإلى عملهم، فكلّما علّقوا على عمل غير جيّد يلصقونه بالعربي، فيقال: "هذا عمل عربيّ، travail arabe"، هذه العبارة كانت جزءًا من الخطاب العنصري الذي عكس سياسة الاستعلاء الاستعماري، في حين سطعت حضارتنا العربيّة هناك، كان الإسبان يفتخرون بكلِّ عمل دقيق ومضنٍ بالعمل العربيّ، كانوا إذا وصفوا شخص ما بجودة عمله يقولون عمل عربيّ "Trabajo arabe"، وذلك إعجابا بالمهارة التي اشتهر بها العرب ولا يزال قصر الحمراء يبهر الزوّار لحدّ اليوم.

وفي الضفّة الأخرى نجد من يتمنّى أن يعيش حياة العربيّ.

قال أحد أجدادك البريطانيين يا **بابلو**:
"يا ليتني أشتغلُ بقوتِ يومي عند العربيّ في قرطبة حتّى أتمكَّن من تعلّم لغة لسانهم، وأتمظهر بمظهرهم وألبس هذه الخاصّة وكان يقصد العمامة التي توضعُ فوق الرّأس" فهي تاج العربي.

بابلو

-لهذه الدّرجة وأكثر كان يفتتن الغرب بكلّ ما هو عربيّ، حتّى النّسل العربي يفاخرون بهِ.

أنيس

وكان من سنن رسول الله أنّه كان يحبّ لبس العمامة، فقال: "إنّ فرق ما بيننا وبين المشركين لبس العمائم على القلانس"، فالعمائم سمة المسلمين، وعن عباد بن عبد الله بن الزبير أنّه بلغه أنّ الملائكة نزلت يوم بدر وهم طير بيض عليهم عمائم صفر، وكان على رأس الزبير يومئذ عمامة صفراء من بين النّاس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نزلت الملائكة على سيما أبي عبد الله، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه عمامة صفراء"

لا يزال كلّ ما هو عربي يشدّكم إلينا يا "دوهي"، فحتّى العمامة برقم 33 هي رمز ابن رشد وابن عبّاد وغيرهم من علماء العرب.

- الفارق بيني وبينك يا "دوهي" أنا دوما أطلبُ السّلام في تحيّتي وأنتَ تسلبُ منّي سلامي!

-يا للعجب!

-كلُّ أراضينا أصبحت مُشبَّعة بالدِّماء، لا أحد يستجيب لنداء العروبة، أصبحنا نبحثُ عن عروبتنا في دفاترنا القديمة التي أصبح لونها أصفرا باهتا...

-نبحثُ عن عروبتنا في قصر الحمراء في غرناطة!

-نبحثُ عن عروبتنا في شوارع برشلونة، في طريق "بلاصة كاتالونيا".

-ذلك الممرّ الذي يعجُّ بالسيّاح من كلِّ أنحاء العالم.

- ذلك الممرّ الذي رأيت فيه بداية العالم ونهايته بكلمة واحدة.

20 أوت برشلونة...

في عطلة الصّيف قرّر **بابلو** السّفر لقضاء أيّام استكشاف في اسبانيا رفقة صديقي دراسته **جوزيف** و **أنيس**، فهو من محبّي المغامرات والبحث في جذور كلّ ما هو عربيّ، وكانت

الوجهة التي نادتهُ الجوهرة المفقودة، لأنّ الأماكن تنادي على زوّارها.

فليس المسافر هو القاصد، بل الأرض هي التي طلبت المقاصد، فكلّ مكان ينادي عليكَ لتذهب إليه لمقصد ما، ستكتشفهُ حين سفرك، ألا يقال أنّ مكّة تنادي على زوّارها، والمدينة تنادي على أحبابِ رسولها، ناولكم الله زيارتها **"آمين"** وكلّنا يعرف ماذا فقدنا سابقا؟ إنّها الأندلس العريقة، كانت الوجهة التي نزلنا فيها ضيوفا وسط المدينة، قضينا ثلاث ساعات رفقة صديقي العربي ونحن نبحث عن فندق يناسبنا نتجوّل من مكان إلى مكان كون الأسعار كانت مرتفعة لأنّه شهر السياحة والاستجمام، شهر أوت معروف ترتفع فيه أسعار التذاكر في كل دول العالم وهو من بين الشهور عشقا لدى الشّباب، يكثر فيه الزّواج والسّفر واللقاءات الغراميّة...

-المهم أسدل الليل ستاره ونحن لازلنا بين شوارع برشلونة الجميلة التي تجذبك بسحرها إلى تاريخ عريق.

-آهٍ؛ شعور لا يضاهيهِ شعور !

-بعض الوجوه حين تلتقي بها تشعر كأنّكَ تلتقي بأجدادك، حين تنظرُ إليها تسرح بخيالك، تأخذك بعيدا جدا... وأنا على ذلك الحال لمحت فندقا فطلبت من صديقي العربي الذهاب إليهِ، فقال لي:

-سيكون باهظ الثّمن.

-هيّا نجرّب، لن نخسر شيئا.

- فلنجرب، عش المغامرة ولا تلتفت إلى الوراء، وإذا لم نجد سنبيت خارجا نتمشى لعلَّنا نلتقي آخر الليلِ ابن حزم الأندلسي أو ابن زيدون فأنشدُ له من شعره بطريقتي الجذابة وصوتي الجميل، وأخذت أردّدُ قصيدة ابن زيدون التي أحفظها عن ظهر قلبٍ والمارة يستمعون إليّ ويلتفتون، واصلت إنشاد القصيدة بصوتٍ جهوري حتّى أكملتها:

أضْحى التَّنائي بديلاً من تَدانينَا، ونابَ عن طيبِ لُقْيانا تَجافِينا
ألا! وقدْ حانَ صُبْحِ البَيْنِ صَبَّحَنا حَيْنٌ، فقامَ بِنا لِلحَيْنِ ناعينَا
مَن مُبْلِغُ المُلْبِسينا، بانْتِزاحِهِمُ حُزْنا، مع الدّهْرِ لا يَبْلى ويُبْلينا
أَنَّ الزّمانَ الذي مازالَ يُضْحِكُنا، أُنْسا بِقُرْبِهِمُ، قد عادَ يُبْكينا
غِيظَ العِدا مِن تَساقينا الهوى فَدَعَوا بأَنْ نَغَصَّ، فقال الدّهرُ آمينا
فانْحَلَّ ما كان مَعْقوداً بأنفسِنا، وانْبَتَّ ما كان مَوْصولاً بأيْدينا
وقدْ نَكونُ، وما يُخْشى تَفَرُّقُنا، فاليَومَ نحنُ، وما يُرْجى تَلاقينا
لم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُم إلاّ الوفاءَ لَكُمْ رَأْيا، ولم نَتَقَلَّدْ غيرَهُ دِينا
نَكادُ حينَ تُناجيكُمْ ضَمائرُنا، يَقْضي علينا الأسى لو لا تَأَسِّينا
واسْألْ هُنالِكَ: هَلْ عَنّى تَذَكُّرُنا إلْفاً، تَذَكُّرُهُ أمسى يُعَنِّينا
ويا نَسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا من لو على البُعْدِ حَيَّا كان يُحْيينا

إلى أن وصلتُ للبيتِ الأخير وأنا أرمي ببصري على الطّريق، لأنّي رأيت الكثير من المارَّة ينظرون إليّ باستغراب وإعجاب، فخفت أن أفلت بيتا، كنت أكمل الأبيات وبصري

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

على الطريق الذي يعجّ بالسّواح من مختلفِ العالم حتّى ساقتني قدماي لبيت القصيد:

عليْكِ مِنّا **سَلامُ** اللهِ ما بَقِيَتْ صَبابَةٌ بِكِ نُخْفيها، فَتُخْفينا

فعصف بي لفظ السَّلام، ما إن نطقته شفتاي حتّى أبصرتهُ مكتوبًا على الأرض، فتوقفتُ لبرهة والدّهشة تأسرني، نظرت مرّة أخرى للأرض فأبصرت مرة أخرى لفظ السّلام.

-عجبا، نطقتهُ بلساني رأيته أمامي!

فسألني **بابلو:**

-هل أرض الأندلس أرض المعجزات؟

أنيس

-مسحت بكلتا يدي على عيناي، نظرتُ مرّة أخرى للطريق فقرأت:

"سَلام عليكِ يا مدينة السَّلام"

نظرتُ مرّة أخرى للطريق فقرأت: **"سَلام عليكِ يا مدينة السَّلام"**

قلتُ مرّة أخرى:

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) ﴿٩٦﴾ ﴿طه﴾

فأدركتُ حِينها أنّها مكتوبة كتابة حقيقيّة وليس توهّما ولا تزالُ موجودة لحدّ الآن.

بابلو

لفظ السّلام مكتوب على الأرض ونحن نبحث عن السّلام الدّاخلي والسّلام الخارجي.

أنيس

لازلتُ أذكر ذلك الممرّ الذي وجدتُ فيه عبارة "السّلام" مكتوبة وسط الطّريق الحجري بفاصل حديدي عرضه 10 سنتيمترا بخطٍ بارز و جحم غليظ:

"سَلام عليكِ يا مدينة السَّلام"

فقلتُ حينها:

-أيّ سلامٍ وآلاف المارّة يدوسُون لفظ السّلام بأقدامهم؟

-أيّ سلامٍ وقد داسهُ برجلهِ العربيّ دون أن يشعرَ؟

-أيُّ سلامٍ وقد داسهُ برجلهِ المسيحيّ؟

-أيُّ سلامٍ وقد داسهُ برجلهِ اليهودي؟

-أيّ سلامٍ وقد داسهُ برجلهِ النَّصراني؟

-أيّ سلامٍ وقد داسهُ برجلهِ المسلم دون أن يُبصر؟

-أيّ سلامٍ وقدّ داسَ لفظ السّلام المكتوب على الأرض الأمريكيّ والصّينيّ والاسبانيّ والكوري والهندي والباكستاني والروسي والتركي والأكراني والفرنسي والإيطالي والألماني والنمساوي.....

-أليس لفظ الجلالة في ديانتنا السّلام؟
-في تلك اللحظة تزاحمت الأفكار في مخيّلتي وأحدثت بركانا من الأسئلة التي لم تستقرّ على جواب وتساءلتُ مرّة أخرى لعلّي أجد فيكم من يُجيبني:
-كيف تُداس الحروف العربيَّة وكيف يداس لفظ الجلالة هناك؟
قد يكون الشّخص الذي كتبها لا يعرفُ من الإسلام إلا اسمهُ ولا من المصحف إلا رسمه، فلا يدرك أنّ لفظ السّلام أنّه اسم من أسماء الله الحسنى.
-السّلام أصبح شعارا يكتب على قطع القماش الأبيض، نفس قطعة القماش ونفس اللون الذي نصمم منه لباس الزفاف، ونفس اللون الذي سنلفُّ فيه آخر مرّة.
-مفارقة عجيبة، أليس كذلك يا **بابلو؟**
-كتبوها لمن يا **أنيس؟**
-للعالم، العالم لا يبصر إلا ما يريده.
-آلاف المارّة من المسلمينَ العرب رأوها ولم يحرّكوا ساكنًا.
وفي نفس اليوم وفي تلك اللحظة كتبت رسالة لإمام المسجد هناك لعلّه يفعلُ شيئا، فقال لي:
"أنا أعيش هنا منذ 30 سنة ولم أر الكتابة على الأرض، فقلت لهُ اذهب إلى برشولونة ستجد طريقا عريضا يمرّ عبره السوّاح يسمى المكان **"بلاصا دي كاتالونيا"** وتأكّد من ذلك بنفسك واطلب منهم فضلا وليس أمرا أن يحذفوا لفظ السّلام المكتوب

على الأرض وليرفعوه عاليًّا لعلّ السّلام يحلّ في القلوب" فبادرني بالسُّؤال:

-ونحن نكتب لمن؟

-لعروبتنا؟

-أنا لا أكتب للعروبة فقط، بل للإنسانيّة جمعاء.

-دعنا من هذا الحديث الآن؛ تركت لكَ رسالتي فافعل ما تراه مناسبًا وسارع، لم يتبق وقت كثير واختر مقعدكَ، فأنت لازلت بلا مقعد ونحن على وشك نهايةِ العالم.

سألني الإمام: من أين أتيتَ؟

فقلت: من الأرض المباركة، من أرض الزيتون.

كيف أبحرت إلى هنا؟

أبحرت وسط دموع شعبٍ يخيط جراحه بنفسه، فقد أصبح لنا بحر ملحه أجاج امتلأ يوم قتل الأطفال في غزة على مرأى العالم، يوم قطِّعت أشلاؤهم، وحملت في قفة بيدين، الكلّ يحملُ حَملهُ وحِملهُ، ظنّ العالم أنّ الأمر سيمرّ مرور الكرام.

الإمام

لعلّ الله استجاب لذلك الطّفل الصغير الذي قال: **"سأخبر الله بكلّ شيء"**

ولذلك الشَّاب الذي نادى بأعلى صوته:

"اللهمّ أرنا فيهم يومًا أسود".

- لم يمضِ أسبوع حتّى احترقت مدينة لوس أنجلس.

-لا تستغرب! فجنود الله لا يعلمها إلا هو سبحانه!
-مجرّد طائر غريب مجنّد لطاعة الخالق، تلقّى الأوامر من خالقه فأشعل النيران في "لوس أنجلس" في مدينتهم الجميلة التي يتفاخرون بها.
-سبحان الله حريق في ساعات قليلةٍ أودى المدينة بأكملها وجعلها رمادا، فتشابهت الصُّورتين ولم تتشابه قلوبهم، الصُّورة الأولى دمار سنوات وسنوات لقطاع غزّة، والصّورة الثّانية لمدينة قال صاحبها كما قال فرعون: (أَنَا رَبّكُم الأَعْلَى)
-فجاءتهُ في ثوانٍ العبرة عبر طائر صغير.

أنيس

-هل هذا صحيح؟

بابلو

-هم يؤكّدون ذلك، فقد ذكرت مصادر أمريكيّة أنّ سبب الحرائق في ولاية كاليفورنيا وهي الأكثر كلفة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية إذ بلغت لحد الآن أكثر من 150 مليار دولار وتدمير أكثر من 1500من أغلى العقارات...
هو نوع من الصّقور التي موطنها الأصلي في استراليا تشعل النّار في الأشجار للكشف عن الطيور ومحاصرتها كطعام لها، ثمّ تنقل النّار بين الأشجار والغابات لمحاصرتها بين النِّيران بهدف اصطيادها...
-سبحان الله

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-هل هي جند من جنود الله؟

-ذكرتني بسورة قرآنيّة: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ 1 أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ 2 وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ 3 تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ 4 فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾**

-ولله في خلقه شؤون!...

-هل هي الطّير الأبابيل نفسها؟

أظنّ أنّ رسالة الطفل الصّغير: "سَأخبر الله بكلّ شيء" بدأت تأتي أكلها على مهلٍ، انتظروا ما هو قادم، سترون ما لم يخطر على قلب بشر، فحتّى الطيور خلقُ الله ينتقم وهذه الطيور يطلق عليها اسم الحدأة (Black Kite)، تقوم بإشعال النار في الغابات تُعرف باسم "الطيور الحارقة" أو "طيور النار"، وأبرزها طائر الحدأة السوداء، تقوم هذه الطيور بنقل الأغصان المشتعلة أو الجمر من حرائق مُشتعلة إلى أماكن جديدة لإشعال حرائق إضافية، ممّا يساعدها على إخراج الحيوانات الصّغيرة من مخبئها لاصطيادها بسهولة.

هذه الظاهرة تمّ توثيقها في بعض المناطق مثل أستراليا، وهي تُعتبر مثالًا مثيرًا للسلوك المتكيّف في عالم الطيور، هذا طائر الحدأة منظّف طبيعي له بصر حاد، يستخدم النَّار لطرد الفرائس الصّغيرة من مخابئها.

-إذن، هل يمكن أن يكون جندا من جنود الله التي لا نعلمها؟

-أتعرف، هناك رسائل كثيرة رُفعت للسّماء ولا ندري متّى تكون الاستجابة لها؟

-فتلك الرسالة لذلك الطّفل الصّغير لا تزال على مسمعي، كأنّي أراها مكتوبة في جبين كلّ شهيد فلسطيني، كلّ شهيد حربٍ قُتل ظلمًا وقهرًا.

-أراها مكتوبة فوق السّماء.

توقّف عن هذا يا **أنيس** أنتَ تخيفني ممّا هو قادم.

-ما أشعر به يقينًا أنّ تلكَ الرسالة التي حملها الطّفل معه إلى خالقهِ ستكشف لنا عن الكثير:

-سترون أوبئة متعدّدة تظهر كلّ سنة تطوّقهم وتحاصرهم في منازلهم كما حاصروا أهل غزّة.

-ستأتيهم أوبئة تُصيب الصّغار قبل الكبار، فتأخذ صغارهم في غفلة منهم، حينها فقط سيشعرون بما شعرت به الأمّ الغزاويّة حين انفطر فؤادها، سيشعرون بفؤاد أمّ موسى لمّا كان فارغًا، ستفرغُ أفئدتهم قريبا، ذلك الطّفل لم ينطق عن الهوى، فالأطفال ملائكة الأرض.

-ستقرؤون كلماتي بعد حين كأنَّها كتبت اليوم، فأنا لا أكتب لليوم، فاليوم أكلناهُ...

-أنا أكتب لنقرأ غدا.

-أليس غدا لناظره قريب، أليس كذلك؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

غدا ستكتشف من يفرّق العروبة ليبسط رداءه؟ فلا مجال في ذلك المكان للكذب، فقد سبقكم ذلك الصّغير وبثَّ شكواه، وأخبر الله بكلِّ شيء، فقد رأى ما لم نر في لحظاته الأخيرة، كشفت له بصيرته ورُفع عنه الحجاب...

رسائل ترفع للسّماء ورسائل تبعث جوّا ورسائل تنتظرُ الاستقبال....

(تبعث **ليليا** خطيبة **بابلو** رسائلها إليه وهو لا يتذكّرها، لم يخبرها أحد أنّه يعاني من فقدان الذاكرة في أرض الحرب، فقد أرجع إليها ليستعيد ذاكرته)

رسائل ليليا بتوقيت نبضات القلب

طول الليل وهاتفك يرن رسائل كثيرة وصلتك البارحة، ممّن؟

-لا تزال تلك المتمرّدة تبعثُ برسائلها أنا لا أعرف من تكون؟
-هل هي مجنونة بحبّي لهذه الدّرجة؟ ألم تتعب ألم تملّ من ذلك، أنا لا أردّ عليها مع أنّي أشعر بشيء ما قلبي حين أقرأ رسائلها؟ ولكن لا أدري ما هو هذا الشّعور
-وصلتك رسائل من **"ليليا"**
أنا لا أذكرها، أكاد أجنّ، أكيد أنّها تعرفني وإلا لما تجرّأت للكتابة بذلك الأسلوب.
والغريب أنّني أكتب عند اسمها "My princess"

لقد ولّى عهد الأمراء يا **بابلو**، هيّا اقرأ لي ما كتبت لك **ليليا** أنا أعرفها كانت تدرس معنا.
ولماذا لا أذكرها؟
- أظنّ أنّك أكثرت من الجواري حتّى أنّك نسيت الأميرة يا بابلو؟
-توقّف عن هذا يا **أنيس**، لا أحبُّ المزاح الثّقيل، لن أقرأ لك شيئا هذا أمر خاص، اذهب عنّي ودعني أقرأ بتمعن ما كتبت لي هذه المرأة لعلِّي أتذكّر شيئا ما، لأنّي أشعر أنّها بداخلي وأنّها بقلبي لأنّها تعاتبني وكأنّنا التقينا من قبل، وأنا لا أردّ عليها، أظنّ أنّني أتعبتها جدا، أرجو أن تسامحني...
الرّسالة بتوقيت الصّباح:
"أعفيتكَ من تحياتي الصّباحية والمسائيَّة...

أعفيتكَ منِّي ومن اهتمامي...
أعفيتكَ منِّي ومن صوري...
أعفيتكَ منِّي ومن لهفتي عليك كلّ صباح...
أعفيتكَ منِّي ومن حالي يا كلّ حالي...
أعفيتكَ منّي و من حبي....
أعفيتكَ مني ومن مشاعري الجيَّاشة...
أعفيتكَ منّي ومن اتِّصالاتي...
أعفيتكَ منّي ومن رنة هاتفي...
.....أميرتك"

لا أستطيع التذكّر، رأسي يؤلمني يا **أنيس،** أظنّ أنّني أذيتها كثيرا، فرسائلها تحمل لي عتابا كبيرا، كتبت لي بالأمس ماذا حلّ بطيفي؟

لم ماذا تقصد فقالت لي:

"كنت تقول لي طيفك أمامي أينما وليتُ وجهي، فماذا حلَّ بطيفي"

ثمّ كتبت لي: قد تبادلنا الأدوار اليوم يا **بابلو،** فطيفيكَ من يلاحقني...

دعني أقرأ لك رسالتها يا **بابلو** التي بعثتها إليّ اليوم لأنّك لا تردّ عليها...

رسالة بتوقيت الشّفق 18:00

رسالة ليليا للصحفي بابلو (كتبت ليليا الرسالة وأرسلتها لصديقه جوزيف وطلبت منه أن يقرأها لهُ بتوقيت الشّفق)

حينَ يَزُورني طيفكَ: 21-22 تشرين الأول 2024

"حِين يزورني طيفكَ تتجمّعُ مشاعري كلّها وتصطفُّ كجنود مطيعة لأوامر أميرها وسيّدها وقائدها منسحبّة كلّها نحوكَ، كأنّها خيوط من نور، كأنّك تملك جاذبيّة العالم كلّهِ، فالجاذبيّة طاقة يملكها كلّ شخص موجود على هذه الأرض، تختلفُ من إنسان إلى إنسان، لا تتعلّق بالجمالِ ولا بالمال، وإنّما بطاقة كامنة داخلك تتفاعل كتفاعلِ الكيمياء لتحكم قبضتها مع شخص واحد لا غير، فتراه بعينك التي لا يراهُ بها النّاس، وتسمعهُ بقلبك الذي لا يشعرُ به أحد غيرك، ثمّ يأتي شخص لم يمرّ به طيف الحبيب يوما ويقول:

- كيف لطيفٍ أن يفعل بك كلّ هذا؟

حين يزورني طيفكَ يحترق قلبي وينثر شرارة شوقه اللعينة التي تطاردني في كلِّ مكان، أذهب للمطبخ يلحق بي طيفكَ، يمرّ أمامي فيرتجفُ قلبي يخيّل إليَّ أنّها الرجفة الأخيرة، فتنهمر الدّموع كأنّها بلور يتناثر هنا وهناك ليغرقني أكثر في بحر حبّك اللّجيّ، وأنا التي كانت دموعي عزيزة عليّ لا أذرفها على أحد"

"أكلّ هذا يفعلهُ بي طيفك ! أم أنّ البعد يزيد من لوعة الشّوق شوقا"

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

"أحاول أن أهرب من طيفك حتّى يظهر لي على شاشة الهاتف يمرّ أمامي كأنّه يعلن معركة معي، يعلنُ حربًا ليس لي فيها ناقة ولا جمل، كأنّ قلبي يطلبه وعقلي يرفضه، معركة أعرف أنّي الخاسر الأوّل فيها، فالمشاعر لا يمكن أن تصفها لأحد، فهي ملكك وحدكَ، مساحتها حدود قلبك ومشاعري إليك لم تعبر، لو عبرت إليك لشعرت بقلبي يا **بابلو**"

حين يزورني طيفك

"حين يزورني طيفك أضع عطرك لأشعر بكَ وأنت تدمّرني كليًا، تحتلني وتستوطن مملكتي، لستَ قاسيا بل أشعر بطيبتك وبيننا بحور ولكنَّك في الحبّ جلادي، تجلدني في اليوم ألف جلدة دون أن تشعر، فتنهمر الدّموع من مقلتاي وراء بعضها لترسم لي حزنا ما كنتُ أتوقّعه منكَ وما كنتُ أنتظره، فأقول:
ليتني لم أرك يوما، ليتني لم أسمعك يوما، ليتني لم أرتمي بين أحضانك، فذراعاك لازالتا تقيّدان كلّ شيء في جسدي"...

حينَ يزورني طيفك

"أغفو كطفلةٍ تعانق وسادتها فتسافر روحها إليك كلّ ليلة فتعانقك تارةً وتقبّلك تارة أخرى، ثمّ تسبح روحها في عالم آخر إلى أن تشرق الشَّمس فتستيقظ على آخر صورة وهي طيفك"

"أدركت حينها أنّك لم تكن طيفا عابرا في حياتي منذ فترة، بل كيَانًا كاملا كنت أرسم طيفكَ منذ أن وعيتُ هذا الزّمن، حينها أدركت أن روحي قد التقت بك منذ زمن بعيد، فالرّوح حين تلتقي بالرُّوح التي تشبهها لا تحتاج أن تتعرّف عليها لتكتشف طيبتها أو خبثها، لا بل لتجدّد العهد معها وتتذكر مكان اللقاء الأوّل"

"سلام على طيفك حين يزورني ويزلزل كياني ويمضي دون أن يشعر، سلام على طيفكَ إلى أن نلتقي"

.....زوجتكَ"

-هل كانت زوجتي يا جوزيف؟ وأنا لا أذكرها.

لا عليك يا **بابلو** ستذكرها فقد كنت مغرما مهوسا بها، ستعود إليها وستجتمعان تحت سقف بيت واحد، وسأحضر لزفافكما.

فقد كنت تناديها **"أميرتي"** وتدلّلها.

بابلو

-أنا كنت أناديها أميرتي **!**

-لا أحد ينادي حبيبته أو خطيبته في هذا الزمان بأميرتي.

-هل هي من عائلة ملكيّة؟

جوزيف

-بل تصرّفاتها، ولباسها وأناقتها ومستواها الفكري جعلك تناديها **أميرتي**، فهي لا تحادثُ من هبّ ودبّ، شخصيتها قويّة، غامضة، ذكيّة، تتحدّث بالألغاز والقليل من يفهم لغتها وأنتَ كان يستهويك هذا النّساء، مع أنّ أغلب النّساء معنا في الجامعة كنّ يحاولن إغراءك ولكنّك لم تكن بالسّهل الهيّن.

آه، فهمت الآن رسالتها قبل يومين يا جوزيف، كتبت لي:

"أتعرف يا بابلو لم تستطع المحافظة عليّ كما وعدتني

ألم تكن تقل لي ذات يوم: "لن أؤذيك أبدا، فأنت جوهرة ثمينة، اجتمعت فيك كل الخصال التي يبتغيها الرّجل في المرأة.. قلَّما يجد الرّجل امرأة مثلك، تجتمع فيها كلّ الخصال"

الجواهر الثمّينة نحافظ عليها يا **بابلو** نُخفيها حتّى عن عيون البشر...

ألم تقل لي: "أنتِ النّور الذي تسلّل إلى ظلمة قلبي، فأنار دُجاه"

يبدو أنّني أحببتها لأنّها تختلف، كلّ ما يحدث يؤلمني يا **جوزيف**، رأسي يكادُ ينفجر، الحرب هنا بالسّلاح والمدافع والقنابل والدّماء تجري في هذه الأرض المباركة وحرب القلب هناك تعلن معركة معي، من المنتصر في الأخير؟

لستُ أدري، ما أدركه أنّني أبحثُ عن ذاتي في هذه الأرض المباركة، لن أترك رسالتي وغايتي التي جئتُ من أجلها ولو استشهدتُ هنا.

جوزيف

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-ماذا تقول **يا بابلو؟** تستشهدُ ، هل أنتَ تُدركُ ما تقول؟
نعم، أدرك ما أقول، شيء ما في داخلي يخبرني بحقيقة وجودي ومن أوجدني في هذا الكون الفسيح، لا أستطيع أن أشرح لك ذلك يا جوزيف، إنّه شعور داخلي أقوى منّي، يزعزعُ كياني، فقد علّمني جدّي كلّ العقائد الموجودة ولكنّي وجدتُ نفسي في هذا الدّين، فلا تسألني أكثر أرجوك دعني أستشعر هذا الأمر لأجد نفسي الضائعة هنا بهذه الأرض المباركة.

حضور وسط الغياب 2025

سجِّل حضورك برقم ميلاد جديد، فأنتَ ولدت اليوم في الأرض المباركة واغرس شجيرة الزّيتون لتثبِّت جذورك ها هنا، فنحن نعيش زمن الإنسان الرَّقمي، فأنا مسجّل هناك، حامل لجنسيّة أوروبيّة لكنّ قلبي الآن أصبح مرشدي، قلبي الآن مسجدي يا **جوزيف**.

بابلو

الآن لا تحتاج إلى اسمك، فالاسم بات قديما، سجّل رقمك بمداد الشّجاعة التي لم يبق منها إلاَّ الرَّسم، لم يبقَ منها إلاّ الوسم، لأنَّك ستجد أعداءك هنا الذي رموك في البئر وباعوك بثمنٍ بخس دراهم معدودة، وستكتشفُ أنَّهم حقنوهم بحقنة الخداع، وأغووهم كما غوى الشيطان إخوة يوسف فعادوا نادمين، فلا تبتئس يا **أنيس!**

سجّل حضورك لأنَّ أخاك هارون سيشدّ عضُدك، فليس كلّ الإخوة كإخوة يوسف...

سجّل حضورك لأنَّك ستجد عبقًا من تاريخ بلادك، ستكتشف البواب الذي سلّم المفتاح.

ستكتشفُ الألغاز، ولكنَّها السّابقة كونها ستجمع كلّ الإخوة في اتِّصال واحد، جعلنا نتساءل: لماذا نحن؟ لماذا أرضنا؟ لماذا طفولتنا المعذَّبة الوحيدة؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

هي رسالة تركها أطفال غزّة للعالم بأكملهِ، لا تزال هذه الرّسالة المنسية تُكتب على جبينِ كلّ طفل شهيد.

هي رسالة لكلّ طفل قادم سيولدُ على الفطرة، لكلِّ العالم، كلّ طفلٍ تركَ رسالته الأخيرة وسافر لعالم البقاء، حيث لا صخب ولا صراخ، لا دموع ولا أحزان، الرّسالة التي تلقَّفها كلّ العالم عبر لسان الطّفولةِ، الرِّسالة التي سافرت عبر البراق لكلّ دول العالم وحطّت رحالها في كلّ بيت فيه طفل مظلوم أو مشرّد، مقهور أو مظلوم.

-كلّ طفل سيكتب وصيّة وسيخبر الله بكلّ شيء، فهل أنتم مستعدّون لتلكَ الحفرة الضيّقة، لا يزالُ هناك متّسع من الوقت، أنقذوا أنفسكم واستجيبوا لندائه.

- ها نحن نعيش في عالم واحد، والرِّسالة كلّ مرّة تقع في يد طفل لا يزال على قيد الحياة.

-هل وصلتك أنتَ في مكانك؟

-هل استشعرتها حقيقتها الكونيّة؟

-ألم تكن طفلا يومًا لتشعر به؟

-أليس لديك أطفال تخافُ عليهم؟

تخيَّل الحرب في بلدكَ، القصف فوق رأسك، المياه تدخل خيمتك من كلّ زاوية، أبناؤك يرتجفون من البرد، البرد ينخر عظامهم...

- يسقط أبناؤك أمام عينيكَ...

- أليس هذا مؤلمًا، كأنّ شخص ما شقَّ بطنك وأدخل يده وأخرج كبدك، فترك الجرح ينزفُ والفؤاد أصبح فارغا منهم.
-ما هو شعورك وأنت تتفقّد رسوماتهم؟
ملابسهم الصّغيرة، رسائلهم لك ذات يوم.
لا عليك لا تقلق لقد فكّرتُ فيكم وجهزت لكم أجوبة، ستجدون رسائل الأطفال وألعابهم بمتحف خاصٍ، لا أدري إن كان يُسمح لكم بزيارتهِ.

جوزيف

-أين نجد هذا المكان وهذه الرّسائل التي كتبتها الطّفولة في هذا العالم؟

بابلو

-أعرفُ أنّك لأوّل مرّة ستسمع بهذا الشخص الذي جمعها ووضعها في مكان معيّن، لا تقلق لا يمكنك مغادرتي الآن حتّى تعرف المكان لتزوره وتقرأ الرسائل التي أصبح يتناثر منها المسك.
-عند من نجدها؟
-ستجد الرّسائل في الدّمى التي جمعتها ووضعتها في معرض لم يسبق لهُ مثيل، أتدري كم رسالةً؟ كم دميّة؟ كم حذاء قدم؟ كلّ حذاء باثنين...
-لا؛ كيف لي أن أعرف؟
-إنّها تفوق الملايين...

الدّمى التي ستتكلّم مع كلِّ الرّؤساء وكلّ الزوّار بلغةٍ واحدة.
-أتعرفُ كم تكلِّف الزيارة لهذا المعرض؟
جوزيف
-مقدار إعادة إعمار غزّة...
أنيس
-الكلّ يتساءل عن مكان المعرض ومكان العرض؟
-هل هو في أرض عروبتنا؟
-هل سيكون في الأرض أم في السّماء؟ فأرضنا وعروبتنا أصبحت تُسيل لعابهم مُنذ الأزل، فهم لن يرضوا عنَّا حتَّى نتّبع ملّتهم، ولن نتّبع ملتهم، أمّا ديننا فقد أصبح يخيفهم ويرهبهم، فهو الدّين الوحيد الذي يجعلنا نتَّفق ولا نختلف أنّ السّجود لله وحده.
-هل تحدّثوا بلغتنا؟
-بل بلغة لم يفقهها أيّ بشر!
-سيسرع الجميعُ لوضع السّماعات، سوف يحضرون مترجميهم، دون جدوى، فكلّ شيء مسجّل في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها.
سيكون هذا المعرض جاهزا بحدود منتصف أو نهاية الحضور في هذا البياض الذي ينثر السّواد، فلولا السّواد ما قرأت حرفًا، ولا أنرتَ دربا، أنتم مدعوون من الآن، لا تنتظروا بطاقات دعوة رسميّة، باسم فلان بن فلان والتاريخ الفلاني، أخبرتكم

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

بموعد الافتتاح حسب حضوركم ها هنا، قد يفاجئكم في أيّ صفحة فلا تبرحوا أماكنكم، ولكنّي سأطلعكم على خبر مهم بعد قليل.

الفصل الثّالث

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1-سَأُخْبِرُ اللهَ أنّ السّلام أضحى شعارا يرفعُ في كلّ دول، وعندنا يقين أنّه اسم من أسماءك الحسنى، سيتجلّى ذات يوم فنحن نراهُ قريبا ويرونه بعيدا.

2- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّهم حاولوا حذف نقطة قوّتنا من غزّة فأصبحت العزّة، فبُهتَ الذي كفر.

3- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّنا انكسرنا ولم نجد جبرا لكسرنا إلّا بالوقوف بين يديك.

4- سَأُخْبِرُ اللهَ أنّنا جئنا لهذا العالم لا نعلمُ شيئا ولكنّنا خرجنا منه نعلم كلّ شيء.

الرّسائلُ الأبدية من رسل السّلام

حان وقتُ افتتاح المعرض، الكلّ جاهز، نادى عليّ أحد الحرّاس **بابلو** المراسل الصحفي سجّل كلّ شيء، فوضعتُ الكاميرا في مكان معيّن وأخذت أتجوَّل بين الصّفوف، المكان مكتظّ على آخره، لا أدري كيف دخلوا.

أكيد لا يعلمون ماذا ينتظرهم؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

تقدّم الوفد الأوّل وكان من الرؤساء، فكلّ رأسٍ كانت تحمل فكرا واتّجاها، ظنُّوا أنَّهم سيستمتعون بالصّور ليراهم العالم، ولكن ما حدث جعل الجميع في دهشةٍ وذهول...

تقدّم الرّئيس الأوّل للكيان الغريب...

فبصقت الدّمى في وجهه هو الأوّل وبصقت في وجوه بعضهم، ورمت بإبرها في صدور بعضهم، ووخزت بعضهم، وتركت البعض الآخر دون أذية وعانقت بعضهم...

(تقدّم الصّحفي ووضع مجموعة من الرسائل كلّ رسالة بلون أمام دميّة من الدّمى، أثار الفضول كلّ الحضور !)

سأل الدرويش الصّحفي من أين لك كلّ هذه الرّسائل وهذه المقتنيات وهذه الدّمى؟

-الصّحفي بابلو:

من أرض الحربِ، فرسائل الحروبِ تبقى خالدة، ساخنة في حرارتها، لا تبرد مهما تعاقب عليها الزّمن، وكلّ رسالة لها لون يمثّلها.

-سأحمل الرّسالة الحمراء أظنّ أنّها تمثّل الحرب والحبّ معا، ولا ثالث لهما، ما دام أنّك قادم من أرض الحرب فأكيد أنّها رسالة أمّ مفجوعة أو أب فقد فلذة كبده أو ابن استشهد والداه أو حبيبة أو حبيب...

الرِّسالةُ الأولى من الطّفولة المنسيّة:

الرّسالة التي لامست قلوب الملايين، لا يزالون يذكرونها، لأنّ صدى صوتها يعود ليحرق الأخضر واليابس، يعود محمّلا

بالأوبئة، رسالة لامست كلّ أطفال العالم إلاّ الكبار فإنّها لم تصل إليهم.

سأخبر الله بكلِّ شيء:

عبارة الطِّفل السُّوري، الطِّفل الصّغير ذو الـثّلاثة أعوام، بينما كان وسط الدّماء فوق السّرير، أنهكتهُ الحرب وهو لا يعرف لها سبيلا، دمَّرت بلده التي كانت قبلة للعلم والعلماء، أصبحت المدينة تبكي أطلالها، المدينة التي كانت تعبقُ منها مروءات النّخوة والشّهامة، مدينة العلم والأدب التي كان يزورها الجميع ويتفاخرون بزيارتها، مسالك حاراتها العتيقة كأنّها مكّة، أصبحنا نرى ذلك في أفلامها ومُسلسلاتها، ما عادت المنازل منازل، ما عادت الدّيار ديار، بل أصبحت أحجارا يسكنها الخراب، المدينة الجميلة تدمّرت بين ليلة وضحاها، وعينا الطّفل تسجّل شريط الخير والشرّ المفتعل، توثّق الألم والأمل، ذاكرة الطّفل أصبحت لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصتها في كتاب لا يترك صغيرةُ ولا كبيرة إلا أحصاها، ولثقل حملها جعلت الطّفل ينطق بما لم ينطق به العلماء والبلغاء والفصحاء، قال وهو يبكي جملته الأخيرة وهو يرثي هذا العالم المشوَّه جنينه، هذا العالم الذي يعيش مخاض ولادة عسيرة لجيل رقمي مادّي، يفتقد لروحانيات تسمو به.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

(سأخبرُ الله بكلِّ شيء)، صدق يقينهُ هو وكذبنا نحن، إنّه لا يبثُّ شكواهُ لأحدٍ، إنّه يبثُّ شكواهُ لله الواحد الأحد، فهو موقنٌ أنَّ الله سينصره ولو بعد حين.

-أتساءل يا **أنيس؟**

-أتراهُ سبقنا إلى جنّة الفردوس وأخبر الله بكلّ شيء حتَّى حلّ بالعالم الوباء؟

-أتراه أُستجيب دعاؤه؟

لازلتُ خائفا متوجّسا ممّا هو قادم من الإنسان الذي أصبح عدوا للإنسان...

الرّسالة الثانية بلون أحمر:

-أقبلت أمّ أنيس على المجمع ألقت عليهم التّحيّة:

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

السّلام عليكم
فردّوا عليها بتحية السَّلام الذي يبحثه عنه الجميع:
وعليكِ السَّلام
لم أكن أسترقُ السّمع ولكن وقع حديثكم في مسمعي، لا أريد أن أشارككم ذلك ولكنّي كتبت رسالة، سأهديك إيّاها أمانةً يا **بابلو** لتضعها في المعرض، ابتسم **بابلو** وأمسك الرّسالة من يد امرأة تحنّ لحبيبها وأميرها وزوجها.
حتّى أنتِ يا خالة تريدين إخبار زوجك بحالك**!**
كلا؛ لا أريدُ إخباره عن شوقي لهُ، بل أريد أن أخبر هذا العالم برسالتي قبل أن ألتحقَ بهِ.
فتح **بابلو** الرّسالة وأخذ يقرأ وقد اغرورقت عيناه بالدّموع:
"سأخبركَ أنّني لا أشتاقُ إليكَ أتعرفُ لماذا؟
لأنّك تتمثّل لي في كلّ الوجُوهِ العابرة
أنتَ تعيش بداخلي، لا أحتاجُ أن أسكن معكَ في بيتك الأخير الذي سبقتني إليهِ لأشعر بوجودك معي فأنت تحتلّني بالكامل ولا أن أنام معك في غرفتك فأنت آخر وأوّل صورة أطبق عليها جفوني، أنت تسكنني دون سكن، أركبُ الحافلة أركض لأجلس بجانبك ولكنَّك غير موجود يخيّل إليّ فقط أنّك جالس تنظرُ إليّ، لست في الحافلة ولكنّك موجود في قلبي.
أجلس على الكرسي، فأراك تنظرُ إليَّ وتبتسم، فابتسامتك قتلت نصف نساء الأرض... أمشي في الطّريق فتتمثّل أمامي طيفًا

جميلا أركضُ إليكَ فلا أجد أحدا... إذا مررتُ بشارع أراك واقفا شامخا مبتسما كأنَّك البدر، فأبتسم والدّموع تنهمر من عيني، لست ملكي الآن ولكنّك ملاكي، لستُ معك ولكنّك كُلِّي"...

-الرّسالة الثّالثة من تحت النّار في مخيَّم الشَّاطئ من الأرضُ المباركةُ:

السّاعة تشيرُ إلى منتصف اللّيل(00:00د)، والمكان مرسوم في ذاكرتي، ينطقُ صديقي الملقب صلاح الدين: "شَبَاب كُنْ"

-ينطق العربي ورفقاؤه: مُستعد

إنّها الذّاكرة يا صديقي تأبى النّسيان، كل يوم تتجددّ الثورة بحناجرنا وحركاتنا وعنفواننا الذي لا يعرف الاعتدال إلا على نداء الوطن، تمنيت لو نعيد هذا النّداء بأرضنا استجابة لهذا النّداء من قلب الحدث، عام 2024.

-يا عالم

-أطفالنا يموتون، نساؤنا يقتلنَ، القصف يحيط بنا من كلّ مكان، القنابل أمامنا، القذائف خلفنا، الدخان يتصاعد إلى السماء يمرّر رسالته وقد حشرج صوتهُ بالبكاء وامتلأت عيناي ببركان الدّموع، واكتفى بكلمة:

"حسبنا الله ونعم الوكيل"

أوصلوا صوتنا للعالم لعلها لحظاتنا الأخيرة، لا أبكي خوفا من اليهود، بل خوفا من الخذلان العربي.

لست خائفا والله، احنا بنموت، نباد، ليل نهار، دموع خذلان، الأمّة الضعيفة...
مع أنّ العالم كلّه ينتفض ويندّد:
أين حقوق الإنسان؟ تلك الكذبة التي اكتشفتها بموت أطفال فلسطين الذين قصفهم الكيان الصهيوني الغاشم.

الرّسالة الرابعة (لقاء بابلو بطفل صغير)
أُلُو....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

السَّلام عليكم ورحمة الله
مِن قلب الحدثِ أكلِّمكم، من عام أحداثِ الأزمة السُّورية التي بدأت في مُنتصف شهر آذار عام 2011 عند خروج الشعب في مظاهرات في مدن سورية...
-أين أنتم؟
جسمِي الصَّغير يرتعشُ من البردِ، أسناني البيضاء تصطكُّ من شدَّة الصَّقيع وأنا أنظر لذلك المُصوّر الوسيم الذي يبتسمُ لي، وأنا أبتسم له من شدّة البرد، لا أعرف من أيِّ جنسيَّة هو؟ فلا هو يرتدي كوفية حتَّى أعرفه ولا هو يرتدي عباءة، أحاول تحريك شفاهي حتَّى أشعر بالدِّفء، ويشعر هو مِن هناك بالفخر لأنَّه على مقربة منِّي، من عين الحدث، يسمع صوت أسناني، ويرى رقصة ركبتاي على موسيقى شتاء اللاَّجئين، يتسابقون لالتقاط الصُّور لنا، يذهبون حتَّى نجد أنفسنا أصبحنا مشاهير السوشيل ميديا... يتقنون عملهم يتسابقون لالتقاط صورة ونسي أن ينزع معطفهُ ليلبسني إيّاه من شدّة فرحه.
انتظرتُ أن يضمَّني إليهِ لأشعر بدفء الإنسانيّة التي ما بقي منها غير اسمها.
هو يلتقط الصّورة وشعاع آلة التصوير كأنّه الشّمس القادمة من الغد فأشعرُ بالدِّفء قليلا.
عدتُ إلى أمّي لأسألها:
أمَّاه؛ ألم تقولي لي أنّهم يتسابقون لفعل الخير؟

-ألم تقولي أثناء تعليمك لي قول المولى عزّ وجلّ: (وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتنَافِسُونَ)

-أمَّاه أخبريهم نحن لا نفكِّر بالشُّهرة؟

-أكبر همِّنا أن نجد بيتًا يأوي أجسادنا وأحلامنا، فالخيام البيضاء باتت مُخيفة، فهي أشبه بلون الكفن؟

اقترب منِّي المُصوّر، وأنا أرتجفُ لا أرتدي ملابس قطنيَّة ولا ماركاتٍ عالميّة وقال:

-مرحبا يا صغير! قلت:

-مرحبا، أخذت أنظر إلى آلة التّصوير تلك، وقلتُ له:

-ما اسمك؟

-اسمي "بابلو" (كان أوّل عمل يقوم به بابلو قبل مرضه وقبل اسلامه)

-أنتَ لستَ عربي؟

-لا، أنا صحفي أجنبي ولكن أصولي عربيّة.

-هل يمكن لآلة التَّصوير خاصَّتك أن تغيَّر العالم؟ قال:

-ربَّما!

سأعود غدًا وأحضر لك ملابس وطعام، فقلتُ:

-إذا وجدتني، وإذا لم تجدني فسأخبر الله أنّك وعدتني، وأنِّي انتظرتك وقد أخلفتَ وعدك!

أخذ المصوِّر يرتجفُ من شدّة كلام الصَّبيّ الصَّغير....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

مرّت سنوات قليلة وما كان المصوّر "بابلو" يعتقدُ أنّه سيعيشُ مواقف أقسى من ذلك الموقف، وأنّه سيعيش يوم ارتقاء روح الرّوح...

"وحدكِ يا رُوح الرُّوح
أنرتِ بصيرة العالِمِ؛
الدُّنيا مهما أشرقت من ابتسامتك فقد غربت الشَّهامة
والمُروءة من وَجْهِ الإنسانيَّة"

الرِّسالة الخامسة من المشهد المؤلم

"مخيم النصيرات وسط قطاع غزة"

المراس الصّحفي بابلو حاضر لتغطيّة الحدث، يسأله أحد الحضور في المعرض عن القرط الذّهبي الذي يعود لروح الرّوح.

رُوح الرُّوح

قطاع غزّة يوم 2024، عقاربُ السّاعة تُشير إلى نهاية العالم الإنسانيّ، حين اغتيلت البراءة وهي ترسمُ على شفتيها ابتسامة النّائم الذي يعانقُ الجنّة، كأنّها ملاك نائم بين أحضانِ جدّها.

الطّفلة الصّغيرة "ريم" البالغة من العمر ثلاث سنوات، تسقطُ الطّفلة صاحبة الوجه الملائكي والجسم الصّغير كأنّها دمية خفيفة المسك، بهية الطلعة، ترتقي شهيدةً، قرأنا في تاريخ الحروب استشهاد الكبار، ولكن هذه المرّة استشهاد البراءة أصبح يعادلُ استشهاد الكبار، كان الرجال العظماء من يخرجون في الحروب ويواجهون الأعداد وجهًا لوجه، واليوم انقلبت المعادلة أصبحت الشهادة للصغار، فالعدوّ أصبح يربكه ويقضّ مضجعهُ ذلك الطفل الصغير الفلسطيني الذي رضع من ثدي أمّه حبّ الأرض، فهو يراهُ المستقبلُ القادم لمحو أثرهِ وإرجاعهِ من حيثُ أتى.

ها هو الحزن يخيّم على عائلتها، جدّها الذي حملها بين يديه ويضمّها إلى صدره ضمّة الوداع وكأنّها نائمة كالأميرة، لا

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

تزال ملامحها الطفوليّة تترك رسائل للأحياء للذين لا يعرفون نهايتهم، فخاتمتها كانت ريح وريحان، كيف لا وهي روح الرّوح.

-هكذا لقّبها جدّها "روح الرّوح" فهي روحه التي بين جنبيهِ، هي من تبعث الأمل لروحه ولقلبه، ها هو يحضنها للوداع الأخير، وكأنّه يشعر بها حيّة، يمسكها باليد اليسرى ويفتح عينيها باليد اليمنى، لا لشيء إلا أنّه أراد يفتح عيني العالم على الحقيقة التي لا يرونها.

-أبوها لم يستطع الصّبر عليها لا يزال يسترجعُ ذكرياتها بالصَّوت والصُّورة عبر مواقع التّواصل الاجتماعي، كيف يستطيع الصَّبر على روح الرّوح؟

كيف يمكنه فعل ذلك وهي بهجة البيت وسروره؟

كانت روح الروح أوّل من يستقبله حين يدخل البيت فيحضنها ويحملها بكلتا يديه وهي تبتسم كأنّها تملك الدّنيا.

أسلمت الطفلة "ريم" ذات الرّبيع الثّالث من عمرها روحها لبارئها، بعدما افترستها بوحشية مقاتلة إسرائيلية بغارة على بيتها في قطاع غزة، لكن جدّها "خالد نبهان" الذي سيفتقدها يلتمس السّلوى لغيابها في شيء من أثرها.

الجد "خالد نبهان" سحب بلطف وعناية من أذن الشّهيدة الصغيرة قرطا ذهبيّا صغيرا، وعلقه على صدره ليظل الحنين لذكراها خالدا.

لا تغيب عن ذهن الجدّ لحظات السَّعادة التي عاشها مع حفيدته **"ريم"**، فهي بهجة البيت وقنديله، كيف لا وهي التي كانت دائما تداعبه وسببا لفرحه وسعادته؟

يتذكّر كلماته لها، حيث كان يقول لها:

"يا حبيبتي، يا قلبي، يا عيني"، فيما كانت هي تحضر له الطّعام والماء.

لست أنا الصّحفي الوحيد الذي يُسجّل الأحداث وينقلها، بل هناك الكثير من الصّحفيين ممَّن ينقلون الحدث وهم على مقربة من الموت، الجميع أصبح متابعا للحدث وإن كان في غير أرض الحرب، فقبل أيّام انتشر مقطع فيديو على نطاق واسع عبر مواقع التّواصل الاجتماعي يظهر "الجد نبهان" يحمل بين ذراعيه جثمان حفيدته ريم، يودِّعها بأسلوب مختلف، بعد أن انطفأت حياتها بالقصف الإسرائيلي رفقة شقيقها الطفل طارق، يخرج حلق أذنها من جيبه ويقبِّله ويخرج الآهات من أعماق روحه:

"آآآآآآآآآه"

يقول الجدّ "خالد نبهان" لمراسل الأناضول: "استفقنا على تساقط الرّكام فوقنا نتيجة للقصف الإسرائيلي على منزلنا في مخيم النّصيرات وسط قطاع غزة."

ويضيف: "وجدتُ نفسي تحت أنقاض المنزل، أصبت برضوض وابنتي أصيبت، في حين فقدنا حفيديّ ريم وطارق، وأصيب ابني وابنتي الآخرين."
ويكمل قائلاً: "القصف وقع في ساعات الليل بدون أيّ تحذير أو سابق إنذار".
"حفيدتي ريم، روح الرّوح، كانت تعيش معي باستمرار، كنت ألعب معها كل يوم، ولكن لم أكن أقول لها روح الرّوح، كنت أقول لها: يا حبيبتي، يا قلبي، يا عيوني
ويردف: "كانت مفاجأة بعد يوم واحد من دفن حفيدتي، حيث انتشر مقطع الفيديو وأنا أداعب ريم وطارق، والناس يقولون لي: هذه اللقطات أثرت في قلوبنا."
يتحدّث عن شوقهِ لها بعد استشهادها ولم يكن يظنّ أنّه سيلحق بها بعد ثلاثة أشهر، يقول: "ريم، روح الرّوح، ذبحت روحي، أستيقظ من النّوم وأنام، والدموع تملأ عيني، فالاحتلال حرق قلوبنا على فلذات أكبادنا، كانت ريم دائما تحضر لي خيارة وكَاتْشَابْ صلصة الطماطم"
"كنّا 45 يوم لم نأكل فواكه ولا موز"
-"منذ استشهادها الأسبوع الماضي أذهب إلى قبرها، كأنّهم نائمون، وأريد تفقدهم كلّ صباح كعادتي، فبعض العادات مهما حاولت التّخلّص منها لن ينصفك الزّمن، أجلسُ عند قبريهما وأسألهم:

كيف حالكم؟

فلا أحد يجيب، غير دموعي تستجيب للنداء مسرعة وتذرف كحبّات البلور، أحاول مسحها فتتبعها أخواتها من بعدها"

"لقد وعدتكم بأن أحضر لكم بطيخ وشاورما وموز بعد انتهاء الحرب، وأن نذهب معًا إلى المطعم لنشتري كباب وشاورما وفواكه، لكنكم رحلتم قبل ذلك".

يظهر الألم والحزن على محيا الجدّ "نبهان" وهو يتحدّث للمراسل الصّحفي ويواصل حديثه لعلّه يخفّف بعضا من الألم:

"ريم كانت جزءًا من حياتي، كنت أحلم قبل رحيلها بكبرها وتحقيق حلمها بالذهاب إلى الجامعة والتشاور معي حول اختيار تخصّصها".

لم يكن يعتقد الجدّ "نبهان" أنّ عدسات الهواتف قد نقلت مداعبته لحفيدته روح الرّوح، وإذا بهِ يرى مقطع الفيديو المنتشر، لم يكن يعلم بأنّ أحدا يقوم بتصويره وهو يداعب جثمان حفيدته، مشيرا أنّ ذلك المقطع "انتشر وأظهر حرقة قلبه على روح الرّوح"

وختم حديثه الجدّ "خالد نبهان" بقوله: "هناك الكثير في غزّة لم يتخيَّلوا أنّ قلوبهم ستحترق على أولادهم الذين تعرَّضُوا للقصف".

(هذه هي قصّة قرط روح الرّوح)

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

(يواصل أنيس حديثه عن الجدّ نبهان الذي ترك رسائل للإنسانية جمعاء فحتّى القطط كان يطعمها وكانت تأتي إليك مسرعة في منظر عجيب)

الأُمّ مَنبَت الرِّجال...

لا يزال الجدّ "خالد نبهان" مستمرا في نضالهِ فقد أصبح محطّ أنظار بعد استشهاد حفيدته روح الرّوح، ها هو يهتم بأمّه

الطاعنة في السنّ، يخدمها بنفسه وبكلتا يديه، يحضر لها فطور الصّباح ويقول لها:

-السّلام عليكم يا حجّة، فتردّ:

-وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته

وهو يخبئ وردة حمراء خلف ظهره، يجلس بجانبها ويقول لها:

تفضّلي يا حجّة ويهديها الوردة الحمراء فتشمّها وتبتسم فيقبّل على رأسها لتعديل خمارها، ويقبّل يدها.

-يا من تفتخرون بالرومانسيّة الغربية وتمجدونها تمجيدا، أغلب الغرب يضعون آباءهم وأمّهاتهم في دار العجزة أو يتركونهم ليعيشوا لوحدهم، وعند موتهم يأتون ليسألون عن الورث الذي تركوه.

-بربّكم هل يفعل هذا الغربي مع أمّه؟ حتّى وهم في قمّة ألمهم يعيشون بحبّ وحنان وعطف ورحمة مع ذويهم، إنّهم شعبٌ يخيط جراحه بنفسه.

-هل تساءلتم من زرع هذه القيم؟

إنّها الأمّ، المرأة التي يقتلها المستعمر لكي لا تنجب ولا تزرع مثل هذه القيم في أبنائها، فكلّ امرأة صابرة قوّية قد استمدّت قوّتها من تلك المرأة التي قالت لزوجها : "حينما تركها في صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء "

"آآلله أمرك بهذا؟

فأشار برأسه (نعم)
فقالت: " إذن لا يضيّعنا"
هي من أنجبت الذي قال:
﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ .
هكذا هو توريث العَقيدة واليقين في الله جلَّ ثناؤه.
هكذا هنّ حرائر غزّة يستمدّ منهنّ أبناءهنّ القوّة والعزيمة رغم كبر سنهنّ.
وقبل استشهاد "خالد نبهان" بأيّام بعث رسالة عبر مواقع التّواصل الاجتماعي إلى أهل الجزائر قائلا:
أهلي وأحبابي في ولاية البيض أتقدّم لكم بالتّحيّة ولعموم أهلي في الجزائر:
وأقول لكم ما قاله النبي صلّى الله عليه وسلّم: "تركت لكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبدا كتاب الله وسنة نبيّه"، لذلك علينا أن نتعرّف على الله حقّ المعرفة، كما قال الصّحابة رضي الله عنهم: "كنّا نجلس مع النّبي صلى الله عليه وسلّم: "يعلّمنا الإيمان، فلمّا تعلمنا الإيمان تعلّمنا القرآن فازددنا بالقرآن إيمانا".
شعب آمن بقضيته لن يهزم أبدا فهو صاحب العبارة: **""لن نغادر أرضنا رغم البطش"**.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

الرّسالة السّادسة 07 أكتوبر/ تشرين الأول
(جميع الحضور في المعرض يسأل عن المفتاح)

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لا يزالُ الجيش الإسرائيلي يُواصل عدوانه، لا تهمّه طفولة ولا براءة، لا يزال يشنّ حربا مدمّرة، خلفت أكثر من 14 ألفا و854 شهيدا بينهم 6 آلاف و150 طفلا، وما يزيد على 4 آلاف امرأة، كأنّه وحش كاسر يريد التهام الأخضر واليابس ليلتهم نفسه في الأخير.

بابلو

لازلنا نحن رسلُ الصّحافة نقوم بمهمّتنا التي يراها البعض هيّنة أو مجرّد وظيفة، بل نحن نواجه الموت يوميًّا، يكشّر أنيابه كلّ لحظةٍ في وجوهنا، ننقل يوميًّا رسائل الشّعب الذي يخيط جراحه بنفسه، أطفال يرتقون شهداء وأطفال يتعلّمون وسط الرّكام، أيّ مفارقة عجيبة هذه؟

في مساء يوم الخميس رحتُ أتفقّد بيتا كان تبحث فيه طفلة صغيرة عن باب منزلهم ولمّا سألتها:

-ما حاجتك لباب بيتك؟

-أبحث عن المفتاح.

-وما حاجتك به وسط هذا الرّكام؟ فقالت لي جملة أذهلتني من شدّتها:

-سأحتفظ بالمفتاح لأتذكّر دوما أنّ العدوّ هدم بيتنا وقتل أبي أمامي، لا لشيء إلا ليقوم بتهجيرنا من وطننا ويتوسّع في استيطانه هو، فنحن لا نترك مفاتيح بيوتنا للعدوّ لأنّنا سنعيد

بناء بيوتنا ونعيد إقامة الأبواب، لأنّ آباءنا عرفوا كيف يبنون شخصيتنا منذ الصّغر.

-أنتَ لا تدرك كم عانى أبي لبناء هذا البيت الذي كان يأوينا؟

كان يرجع كلّ مساءٍ منهكًا متعبًا إلى بيت الجدّة التي كنّا نسكنُ عندها، ويعطي للجدّة المال ويقول لها خبئيه عن الأطفال لأنّي سأشتري به الاسمنت وأدوات البناء لإتمام بيتنا الجديد.

وذات مرَّة طلبت منه شراء حذاءٍ له، لأنّ حذاءه يختلفُ عن أحذيتنا، حذاء قديم أكل عليه الدّهر وشرب، يضع أسفله قطعة غليظة كي تتأثّر رجليه، فأصبح بعدها يضع حذاءه وراء الباب يُخفيه حتّى لا تراه الجدّة، وأنا لم أكن أنتبه ذلك

كان يشتري لنا الفاكهة يقسِّمها علينا ولا يترك لنفسه نصيب، وعندما أسأله:

"أبي ألا تحبّ الفاكهة؟" فكان يقول لي: "الحقيقة أتوقُ لفاكهة السّماء"

-هل فاكهة السّماء أطيبُ طعما وألذ ذوقًا من فاكهة الأرض؟

فيبتسم أبي ويقول: "سأترك لكم أنتم فاكهة الأرض وأنا سآكل فاكهة السّماء"

كنتُ أظنّ أنّ أبي لا يحبّ الفاكهة وبعد استشهاده بشهور زارنا أحد أصدقائهِ وأحضر لنا تفاحًا وقال لنا:

" كان يحبّه إسحاق قبل أن يشتري الأرض ولأنّه أراد أن يكمل بناء البيت لعائلته كان يحرم نفسه منها"

-رحل أبي ليتذوّق فاكهة الجنَّة!

رحل أبي ومازال حنانه يغمرنا، كيف أترك المفتاح وأنا أوّل من أعطاها إيّاه يوم رحلنا إلى بيتنا الجديد؟ ثمّ قال: فاطمة افتحي الباب وأوّل من تدخل جدّتك، وضعت جدّتي رجلها اليُمنى وقالت: "بسم الله"

دخلنا البيت أخذنا نتجوّل هنا وهناك،كان البيت جميلا يرسمُ فرحة أبي الكبيرة التي لا تضاهيها فرحة، تظهر في عينيه وهو يشير بيديه المتشقّقتين إلى الأثاث الجديد، البيت الذي بناه بتعبه وعرق جبينه... كان هو الأمن والأمان الذي يبثّه في قلوبنا كلّ يوم.

-كيف لا أبحثُ عن المفتاح وأحملهُ معي؟ !

ليتني أملك القوّة لأخبر العالم عن أبي فأبي هو العالم في حدّ ذاته !

يا الله أودّ أن أخبر أبي أنّ أمورا كثيرة حدثت بعده...

بابلو

-لست وحدك يا فاطمة من يريد أن يخبر من رحل عنه، كلّنا فقدنا حبيبا وعزيزا ونودّ أن نخبره بمدى شوقنا ولوعتنا إليه، فنار الشّوق كالجمر المشتعل في القلب لا تنطفئ.

- كذبوا عليّ حين قالوا لي:

مع مرور الوقت ستنسي والدك وتتعودين على الأمر..

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

مرّت سنوات ولم أنسَ، شوقي لن ينطفئ مهما مرّت عليه سنوات، كلّ زاوية في قريتنا لا تزال تهمس باسمه الجميل "جمال الدّين"

مكانه الذي يجلس فيه كلّ مساء أمام البيت يذكرني به، فكلّ شخص له مكان خاص به، يحنّ له حتّى بعد وفاته.

حين أسمع لفظ أبي تشتعل لوعةَ الفقد من جديد، وكأنّها خنجر يلامس الجرح المفتوح فيزيد من ألمي، في كلّ وجه عابر أرى طيفه، فكيف أشفى؟

-احتسبي أمرك لله

-هل أنت مسلم؟

-أنا إنسان لي قلب ومشاعر، أشعر بما تشعرين!

ماذا لو تركتُ لك هذه الصّفحة فارغة لتكتبي ما تشائين لعلّ ذلك يخفّف عنك فقدك.....

اكتبي رسالةً لأبيك الآن، فالله يراك ويسمعك، سأترك لك هذه الصفحة لأنّي أعلم أنّك تودّين كتابة الكثير لأبيك فالكتابة شفاء الجروح وإحياء الرّوح، أخبري الله بشوقك ولوعتك لأبيك فهو الوحيد القادر على شفائك من هذا الألم، إليك الورقة والآن وداعا إلى لقاء قريب.

سأخبر الله بكلِّ شيء

سأخبرُ الله أنّني.....

.....

.....
.....
.....
.....
.....
.....

تركت البنت وسط الرّكام تكتب رسالتها لأبيها وأنا على يقين أنّ رسالتها وصلت قبل أن تكتبها.
مضيت بخطوات متثاقلة لألتقط صورا أو أصوّر فيديو للتاريخ، فأنا لا أصوّر للعالم، العالم يعرفُ كلّ شيء لا يحتاج لصوري وفيديوهاتي.
أصوّر للتاريخ ليشهد على جرائم بشعة لم تألفها البشرية من قبل...
وجدت نفسي ضائعا وسط الرُّكام أبحث عن نفسي، ألتفت يمينا وشمالا باحثا عن البنت الصغيرة التي تركتها تكتب رسالتها، وإذا بي ألمح سيارة عسكرية قادمة ناحية البنت فخفت عليها، تقدّمت نحو السيارة سريعا حتى لا يروها وأخذت ألتقط صورا أمامهم، توقّف السّائق ونزل الجندي الإسرائيلي ووجّه إليّ السلاح وخاطبني بلهجة شديدة باللغة العبرية...
فقمت بالردّ عليه باللغة الانجليزية، فقال لي: هل أنت عربي؟
-لا لست عربي ولكنّي أتحدّث العربيّة.

-تابع لأيّ قناة أنت ومن أيّ دولة؟

-أنا من بريطانيا

-ما اسمك؟

-بابلو

-تركت العالم كلّه وجئت لتعمل هنا!

-العالم ليس بحاجة إليّ، ولكن هذا المكان بحاجة إليّ

-هذا المكان سيكون لنا بعد سنوات قليلة، فقلت:

-الدّار لأهلها

فنطق الجنود من خلفهِ بفرح:

استشهد الجميع، استشهدت المرأة واستشهد الرّجل، قتلنا الأطفال، لن نترك أثرا للنّسل العربي في فلسطين، سنقضي عليهم جميعا، ثمّ ركب السيارة وقال لي: عُد إلى بلدك أفضل لك وانصرفوا وتركوني مع الأفكار تتزاحم في عقلي لتحدث ضجيجا داخلي، وهنا كانت بداية مرضي لأنّي لم أستطع تحمّل ما أراهُ يوميًّا.

أخذت أتحدّث وحدي بين الرّكام كأنّي مجنون ولم أكن أعرف أنّي أقترب من الجنون في حدِّ ذاته، أمشي بين الركام وأنا أقول بأعلى صوتي:

"استشهدت المرأة التي تُنجب، واستشهدَ الرّجل، واستشهدَ الرّضيعُ، ونسوا أنّ أمّه وضعته في اليمِّ"

سيكبرُ الرّضيع ويشتدّ عوده ويكون هلاككم على يديه.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

نسيتُ أنّني تركت البنت تكتب رسالتها لأبيها وإذا تردّ عليّ:
التّاريخ يتكرّر معنا، التاريخ يتكرّر مع أطفال غزّة، لقد سرد لي أبي قصّة موسى وسبب قتل فرعون لكلّ الرّضع؟
لعلّي الطفلة الوحيدة التي ستكشفُ السرّ !
-بيت المقدس! الكلّ يطمع في ذلك!
رأى فرعون في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس، وهو نفس المكان الذي يشهد الإجرام الصّهيوني اليهودي، رأى فرعون أنّ النّار أقبلت من بيت المقدس فأحرقت دور مصر، وجميع القبط، ولم تضرّ بني إسرائيل، فجمع الكهنة والسحرة، وسألهم عن تفسير هذه الرّؤية، فقالوا له:
-هذا غلام من بني إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديهِ، وزوال ملكك على يديه، فما كان من الطّاغية فرعون إلا أن أمر بقتل الغلمان، كما تفعل اليهود الآن محاولة منها للقضاء على النّسل العربيّ الفلسطيني، وطلب منهم فرعون ترك النِّساء، إلا أنّ إسرائيل حاليا تقتل الكلّ دون استثناء كأنّها تستعجل القضاء على الفلسطينيين.
لقد احترز فرعون كلَّ الاحتراز ألا يبقى رضيعا حيًّا في تلك السنة، قتل الأطفال، حتّى أنّه أرسل رجالاً وقوابل، وهنّ النّساء الخبيرات في الولادة وأوضاع الحمل، يطفن على نساء بني إسرائيل، ويتفقَّدن كلّ حبلى، ويسجلن تاريخ ولادة كلّ امرأة، القابلة ترى هذه الحامل وتسألها وتعرف من هيأتها كم شهرًا

مولودها الذي في بطنها، فتسجل وقت ولادته؛ ليأتوا إليه ويأخذوا الولد ويذبحوه، فتصوَّروا نفسيَّة ومشاعر الأمّ الحامل التي يأتيها هؤلاء المجرمون ليسجلوا موعد الولادة ويأخذوا الولد ويذبحوه.

نفس ما تفعله إسرائيل مع النّسل الفلسطيني إلا أنّ الطريقة تختلف.

أيّ نفسية ستعيش الأمّ وهي ترى مصير ابنها؟ وأي وضع تكون فيه وهي تعرف أن هذا الذي ينمو في بطنها ويتغذَّى منها آخرته وعاقبته أنَّه سيُؤخذ ويذبح؟ فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك السّفّاحون من ساعته، كما قال ابن كثير رحمه الله وقال: "وعند أهل الكتاب إنَّه إنَّما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم، أو قاتلوهم".

إذًا قضية قتل الولدان لم تكن فقط قبل ولادة موسى، بل كانت حتى بعد بعثة موسى، وبعد أن صار نبيًا، وبعد أن أرسله الله إلى فرعون، والدليل على أن فرعون استمر يذبح أولاد بني إسرائيل حتى بعد أن بعث الله موسى إليه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

ولذلك قالَ بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

قتل فرعون أعدادا كبيرة من الأطفال حتَّى لا يُولد موسى، ولكن وُلد موسى الذي سيهلك فرعون بسببهِ، ويعيش موسى في قصر فرعون، ويأكل من طعام فرعون، ويتربَّى عند فرعون، وهذا من عجائب قدرة الله.

هكذا سيحدثُ معنا ومع أطفال غزّة، سنولد من الرُّكام ومن الرُّماد، كأسطورة الفينيق، سيبقى نسلنا مهما حاول الكيان الصُّهيوني.

بابلو

-أتعجّب لكم يا أطفال غزّة كلَّ العجب، لم أر في حياتي أطفالا مثلكم، يولد الصّبرُ معكم من قلوب أمّهاتكم كأنّه نبتة صغيرة، ثمّ ينمو ويكبر كشجرة عظيمة، فالنّبتة الصّغيرة لم تكن تعلم يومًا أنّها ستصبح شجرةً عظيمةً، ولكنّكم أنتم الأطفال تعلمون ذلك، وتؤمنون به، فعمرُ الطّفل عندكم يفوق 300 عام.

فاطمة

-لا تتعجّب! فنحن شعب يستمدُّ قوَّتهُ من وعد الله في كتابه العزيز، لقد وعدنا الله بالنّصر ونحن على يقين من ذلك.

إنّ الله إذا أراد شيءا فإنّه يهيئ له كلّ الظروف ليتمّ على ما أراد الله، فهو الفعّال لما يريد، وهو القوي الشّديد، وهو ذو البأس والحول، والطول، لا مردّ لمشيئته.

فحتّى الطّفل الرضيع "موسى" لمّا وضعته أمّه أوحى الله إليها، وهذا الوحي وحي إلهام وإرشاد،﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

فألهمها الله هذا الأمر، وقذف في قلبها، وألقى في روعها وألهمها أن تجعل موسى في صندوق من خشب، وتلقيه في اليم، فَإِذَا خِفت عليه ألقيهِ في اليمِّ!

-سبحان الله!

نحنُ إذا خفنا على شيء ولا نلقيهِ في البحر؟

-نخفيهِ حتّى من أعين النّاس، وإذا خفنا على كلام نكتمهُ في قلوبنا ونسرُّه ولا نعلنه، لكن أمّ موسى اختلفَ معها الأمر، لماذا يا ترى؟

-أمّ الرّضيع موسى ألقتهُ في اليمّ، لحكمة يعلمها الله ولا نعلمها نحن!

-بابلو

-هل تظنّين أنّكم مثل الرّضيع موسى؟

-نحن نعيش في يمٍّ من الدّماء منذ سنواتٍ طويلة، فكلّ طفل فينا هو موسى وكلّ أمّ فقدت شهيدها هي أمّ موسى، فؤادها أصبح فارغًا وحلّ محلّه الحزن والألم الذي رسم طريقه على وجوه أغلب الحرائر.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

أُمّ مُوسَى أَرْضعت ابنها لبنا خاصًّا بها حتّى يتعوّد عليه، وإذا عُرض عليه لبنا آخر يرفضه، فالآن هو سيمتصّ اللبن ويتعوَّد على مذاقهِ فينفر فيما بعد بقية المرضعات.

-أمّا نحن أطفال غزّة فقد رضعنا حُبّ الوطنِ مع أوّل شهقة تنفّسٍ، بل قبل أن نولدَ رضعناه من دمّ أمّهاتنا، سمعنا قصصهُ ونحن في شهورنا الأولى في رحم أمّهاتنا، فنحن أوّل جيلٍ يتلقّى تعليمهُ وتدريبهُ في حبِّ الوطن في رحم أمّهاتنا.

-أتدري لماذا؟

-طيلة فترة مكوثنا في رحم أمّهاتنا سواء أمكثنا سبعة أشهر أم تسعة أشهر، فإنّنا نسمعُ كلّ يوم الدَّعوات ترفع قُبيل الفجر إلى الله، تدعو بالنَّصر للوطن الأمّ، وما إنْ تُشرق الشّمس حتّى نسمع الحديث عن الأمّ الأرض، نسمُ الحديث عن الغارات، بل نسمع القذائف وزغاريد الاستشهاد تتعالى، ونغفو على نشيد الحرية كلّ مساء:

-نموت نحن ويحيا الوطن

-نستشهدُ نحن ويحيا الوطن

-فليحيا الوطن

وقد قالها محمود درويش: "على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة"

-نحن الأطفال الذين نولد وأعمارنا تتجاوز 300 عام

كأنّ الأرض هي الأمّ تنادي علينا كلّ يوم أفلا نجيب:

"أنَا لكُم وأنتم لي وغَريبُ الدّيَار سيعودَ بلا دارٍ"

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

نحن أطفال غزّة الجميع يودّ التقاطنا من يمّ الدِّماء ويأخذنا ليربينا في بيته، تتهاطلُ الاتِّصالات من كلّ أنحاء العالم ليأخذونا إلى بيوتهم، انبهروا بجمالنا وسحر عيوننا، ولون شعرنا، ونظرتنا التي تحملُ كلّ شيء، ونسوا أنّ أعيننا تعكس بشاعة هذا العالم الذي يرى مأساتنا وعذابنا ولم يحرّك ساكنا، أرادوا التقاطنا ونسوا أنّ لنا أمّا لن نتركها أبدا، كيف نترك الأمّ فلسطين؟ كيف نترك الأرض المباركة؟ فإن استشهدت الأمّ التي أنجبتنا، لا تزال الأمّ التي ننتمي إليها ونحمل جنسيّتها.

ظنّوا أنّنا كالطّفل موسى لمّا رأته الجواري التقطنه، فأتوا به امرأة فرعون آسيا بنت مزاحم، فلمّا فتحت الصُّندوق، وكشفت الحجاب رأت وجههُ يتلألأ بالأنوار النّبوية والجلالة العظيمة، وكان الله قد ألقى على موسى محبَّة منه، فلا يراه أحد إلا أحبَّه، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي.

-هكذا نحن كأنّنا ألقينا محبَّتنا على كلّ العالم فأرادونا أن نكون في بيوتهم قرّة عينٍ لهم،كزوجة فرعون لمّا رأته وقع حبّه في قلبها وقعًا عظيمًا، ولمّا جاء فرعون قال:

"ما هذا؟" وأمر بذبحهِ، فاستوهبَتْهُ منه، وقالت: قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ.

- لَا تَقْتُلُه.

كأنَّ فرعون قال لها: أمَّا لك فنعم، أمّا لي فلا لا حاجة لي به،

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

فقد كان موسى قرّة عين امرأة فرعون، أسلمتْ بسببهِ، وماتت شهيدةً على دينه، وقالت :

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وفعلاً نفعها؛ لأنَّه لم يكن عندها أولاد، فطلبت من زوجها أن يبقيهِ، فوافقَ على طلب زوجتهِ وهو لا يدري ما سيكون في المستقبل، ولا يدور في بالهم، ما المراد بهذا الغلام؟ !

بقيت أمّ موسى بفؤاد فارغ ومثلها كثير في الأرض المباركة، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾

-كم من أمٍّ فلسطينيّة أصبح فؤادها فارغا؟ فارغًا من كلّ شيء من أمور الدُّنيا، من الفرح، من السرور، من ملذات الحياة، فارغا من كلِّ شيء إلا من ذكر شهيدها وفقيدها.

الأمومة نفسها، أمّ موسى أصبح فؤادها فارغا من كلّ شيء إلا من ذكر موسى، وأمر موسى، ما عادت تفكِّر في شيء إطلاقًا إلا هو، ومعروف عاطفة الأمومة ولهفتها على الولد.

هكذا كانت أمّ موسى، وهكذا هو شعور كلّ امرأة فلسطينيّة فقدت رضيعها، تستمدّ قوّتها وصبرها، وثباتها من الله.

-من سيعيدُ كلّ رضيع إلى أمِّه وأبيهِ؟

من سيعيدُ كلّ شهيد إلى أمّه وأبيهِ؟

-هل سيعود الشُّهداء أم تعود رسائلهم؟

-نعم سيعودون ذات مساء يحملون البشارة كما عاد موسى الرَّضيع لأمّه، فلمَّا استقرّ بدار فرعون بكى الرَّضيع من شدّة الجوع وكأنّهُ ينادي على أمّه من بعيد، فأرادوا أن يرضعوهُ، ولكنَّهم لم يستطيعوا ذلك لحكمةٍ ما؛ رفض الرّضاعة من كلّ ثدي، فلا لبن يشبهُ لبن أمّه، اشتدّ بكاؤه، فاحتاروا في أمرهِ، وأرسلوا في القوابل والنِّساء حتّى من السُّوق، لعلّهم يجدون من يوافق رضاعهُ، ولكن لا فائدة، فبينما هم وقوف والنّاس عليه عكوف، أبصرت أخته هذا المشهد، فلم تُظهر أنّها تعرفهُ، بل قالت:

"هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ؟"

-قالوا: هاتي فلمّا أتت بأمّه أقبل على ثديها، وأخذ يمتصهُ ويرضعهُ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وأجرت "آسيا" النّفقات، والهدايا، والهبات على أمّ موسى؛ لأنَّه وجد الثّدي الذي رضيَ الولد الرّضاعة منه، وهكذا جمع شمله بشملها، وصارت أمّ موسى تُرضعُ ولدها، وتأخذُ على ذلك الأجر.

-هل سيعود الأطفال الشّهداء إلى أحضان أمّهاتهم؟

-نعم سيعودون وسيلتقون بهم ويحضنوهم، سيتحقّق وعد الله.

-ألم يتحقّق وعد الله مع أمّ موسى؟ !

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

وهكذا نشأ موسى في قصر فرعون يأكل أطيب الطّعام،

ويشرب ألذّ الشراب، ويلبسُ أحسن اللّباس، ليقضيَ على فرعون في الأخير.

هكذا سيكون مصير الكيان الغريب، العدوان الإسرائيلي، دعوه يأكل من خيرات فلسطين، ومن شجر الزيتون، سيكبر هذا الجيل وسيخرج العدو الإسرائيلي من أرضه، فهذا الجيل لا يشبه الأجيال التي مضت، فالطفل فيهم بحديثه بعمر 300 سنة، ينثر الدرر.

-بابلو

إذا كان الطِّفل فيكم يتحدّث بهذه الحكمة وبهذه القوّة فلن يطول بقاء الكيان الصهيوني طويلا.

-أتعرفين يا فاطمة لقد ذكّرتني بالضفّة الأخرى.

-أيّ ضفّة؟

-أطفال سوريا، لازلت أعيش بين أنقاض رسالة ذلك الطّفل الصغير الذي قال للعالم بأكمله في رسالته الأخيرة:

"سأخبر الله بكلّ شيء" لا يزال ذلك الطّفل يراودني طيفه، كأنّي أتخيّله يتحدّث إليّ كلّما هممتُ بأمر ما.

-من الجيّد أنّ الكاميرات سجّلت رسالته

"الكاميرا أفضل بكثير من البندقيّة"، لذلك سأذهب هذا الأسبوع لزيارة صديق هناك وأعود إلى هنا لعلي ألقاك بهذا المكان.

فاطمة

-ولعلّك لا تلقاني

أعطني مفتاحك لأضعهُ في المتحف.
-مستحيل سأبقيهِ معي ليذكرني بالاحتلال ولأعيد إعمار غزّة.
إذ لم ألقك سأبحث عن دميتك وأضعها في المتحف وأطلب منها أن تخبرني عن رسالتك الأخيرة.
انتظر أكتب لك رسالتي الآن لتضعها عند مدخل متحف طفولة الحرب الفلسطينيّة:
-الوثائق المطلوبة لدخول المتحف:
-صورة لفلسطين قبل بداية الحرب!
فقد كانت مدينتي القدس من أجمل المدن، أينما ولَّيتَ وجهك تتفتّحُ لك الورود الحمراء والبيضاء والصَّفراء لتلقي عليك تحيّة الأمراءِ، بنفسجٌ وياسمين، تلك هي ورود مدينتي التي لا تشبهها مدينة بالعالم فهي المدينة التي فيها المسجد الأقصى الحرم الشريف، أحد المساجد الثلاثة التي يشدّ الرّحال إليها، صباحها صلاة على الرسول ومساؤها ذكر وقبول، صباحها ياسمين ومساؤها عطر البنفسج وليلها عبق من تاريخ الأنبياء. ربيعها ممتدّ طول السَّنة لثمارها اليانعة وورودها المتنوّعة، تُزيّنُها قبة الصّخرة التي تلمع من بعيد كأنّها استعارت من الشمس توهّجها، تجد نفسك في أشهر بلدان العالم، إنّها المدينة التي تأسرك بمناظرها الطبيعيّة، كيف لا تكون هذه المدينة ساحرة؟ وقد صلّى بها سيّد المرسلين بالأنبياء، كأنّك تستشعر وطأة

أقدامهم، تكبيراتهم للصلاة وإمامهم محمّد صلى الله عليه وسلّم، إنَّها مدينة تدغدغ مشاعرك باليقين والنّصر القادم...

-صورة لإسرائيل وهم يدخلون فلسطين حفاةً عراة يبحثون عن مكانٍ يأويهم.

-بطاقة إحصائيّة لعدد شهداء أطفال فلسطين.

-شريط فيديو يوثّق معاناة أطفال فلسطين منذ انطلاق الحرب 30 نوفمبر 1947.

-إحضار الزّائر امرأة من أقربائه فقدت عزيزا عليها ولم تستطع نسيانه لا يزال طيفه يزورها في كلّ مكان لتحدّثكم عن إحساسها وعن ألم الفقد وعن جرعات الحزن التي تحتسيها كلّما تذكّرته.

-إحضار أبٍ مفجوع في فلذات أكباده من الأقارب ليعلّمكم كيف ابيضّت عيناه لفقد يوسفهِ.

وإلا كانت زيارة الزّائر لمتحفنا مجرّد زيارة شكليّة، فقد أصبحت المتاحف مورد مالٍ لبعض الدّول يقتاتون حتّى من سيرتنا بعد وفاتنا واستشهادنا.

-لا نريدُ متحفا لنا نحن الأطفال، فقد خيّرتنا الحياة بين العيش كالعبيد أو الشّهادة، ونحن اخترنا الشّهادة رغم صغرنا، لازلنا نحلم بمدينة الألعاب نجول في أرجائها.

- لازلنا نحلم بمدارس واسعة دافئة، ها نحن ندرس على ضوء الشموع والبرد يعانقنا ويعلن دعمه للعدوّ، انقضت السنة

الدّراسيّة وحصلنا على شهادات سماوية لا تعطى لمن هبّ ودبّ، فجلّ الأطفال استشهدوا، فلم يعد للشهادة الورقية قيمة في نظري، فإذا كان الحاصل على أعلى الشّهادات من أرقى الدّول سفّاحا فلا قيمة لشهادته أمام الإنسانيّة.

-ما قيمة الشهادات العليا وصاحبها يتخذّ قرارات عشوائيّة بالنصب والاحتيال على البشريّة.

هذه السنة كانت شهاداتنا سماويّة، واخترنا الجنّة مكان تتويجنا، وليس متاحفكم المزعومة.

-لا تتركون البشر يرتاحون حتّى بعد استشهادهم.

-لم أر في حياتي أبشع من متحف الإنسان في فرنسا.

بابلو

لقد زرته هذا المتحف.

-حقًّا، وأنت مسرور بإنجازك وأنت تصوّر جماجم شهداء ارتقت أرواحهم إلى السّماء؟ **!**

(يطأطئ بابلو رأسه ويذرف الدموع حين يستحضر ذكريات زيارته لمتحف الإنسان في 2023 والجناح الذي أثّر فيه وهو جماجم شهداء الحرب التحريريّة الجزائرية)

-لست كما تظنّين يا فاطمة، ما رأيته في متحف الإنسان من عدد هائل للجماجم جعلني أفكّر كثيرا وأتساءل عن الإنسان كيف يكون عدوّا للإنسان؟

فالعالم لا يزالُ في القاع ما دام أنَّ الإنسان عدوّ لأخيهِ الإنسان، الإنسان يقتل الطفولة دون رحمة، دون شفقة...

-هيّا فلتجب عن أسئلتي التي تدمّرني وأنا بين هذا الركام ما دام أنّك تحدثت عن الإنسان، بالله عليك، لماذا هذه الحروب؟

-هل سألتَ نفسك يومًا هذا السُّؤال البسيط في طرحه، العميق في مضمونه:

-لماذا هذه الحروب؟ ما ذنبنا نحن الأطفال أن نعيش زمن الحروب التي أتت على الأخضر واليابس؟ تقتل الآلاف من الأطفال والنّساء والرّجال أو بالأحرى الملايين من البشر!

-من سببها يا بابلو؟

-الإنسان!

-البحار من لوَّثها؟

-الإنسان!

- طبقة الأوزون من ثقبها؟

-الإنسان!

-من سبَّب الاحتباس الحراري؟

- الإنسان!

- الحيوانات من استنسخها حتّى ولّدت الفيروسات؟

-الإنسان!

-من وضع جماجم الشهداء في متحفٍ؟

-الإنسان؟

-وهل عدوّ الإنسان إلا الإنسان يا بابلو؟
-هل كنت سعيدا بعد زيارتك لمتحف الإنسان بفرنسا وأنت ترى جماجم شهداء قدّموا النّفس والنّفيس من أجل حريّة وطنهم.
- لم أكن سعيدا كما تتصوّرين ولكنّني اكتشفت بشاعة عالم آخر من البشر.
وكانت لي الفرصة لاكتشاف تاريخ دولة أخرى أشبه بتاريخكم، أتدرين يا فاطمة أنّ زيارتي لمتحف الإنسان فتحت عيناي على تاريخ كنت أجهلهُ، وعلى دولة كنت أظنّها إنسانيّة، بسبب زيارتي لهذا المتحف تمكنّت من فتح صفحة من صفحات التاريخ.
إنَّ فتحَ صَفَحاتِ تاريخِ الجزائر بمثابةِ الإبحار في مُثلثِ الموت والشّهادة، لا ثالث لهما، فتاريُخ الجزائر السّاطع للعالم أشبهُ ببحرٍ أسفلهُ نار لا تنطفئ بالماءِ، بل بالشّهادة والدِّماء، فإذا كُنْتَ لا تملكُ شغفًا للأرض يُضَاهِي شغفَ المُحبّين والعاشقين، فسيُقابلكَ الفلاّح بفأسِهِ ومِعولهِ وقبضةِ يدهِ التي عَشِقت التّراب، ويمنعُكَ من لمسِ أوّل صَفْحَة من تاريخِ الجزائر، ولنفرض أنّك تملكُ شغف التُّربة وحُبّها، هل بإمكانكَ أن تضعَ قدمكَ على عام استعماره 1830 دون أن تزل قدمكَ؟ هل ستحملُ مُسدسًا أو بندقيةً أو رشاشًا أو مدفعًا... لتصلَ إلى عام 1962 بسلام؟

لا هذا ولا ذاكَ فالأرضُ لا تعرفُ إلا مَنْ ترِبَتْ يداه، فسَيُصَافِحُكَ الفلاَّح بتربةِ يدهِ البيضاء ويمنحُك تأشيرةَ المُرورِ للصَّفحةِ الأولى، هل بإمكانكَ أن تقوم بالعدّ، مليون ونصف مليون شهيد دون أن تزل... لتَصِلَ إلى 1962؟ بل وأكثر !
لن تستطيعَ صَبْرَا إلا إذا كُنتَ تملكُ قلبًا ثوريًا ينتفضُ للوطنِ.

لن تستطيع صَبْرَا إلاَّ إذا كُنت من سُلالة الشّهداء، سيُصادفك أوَّل من حُمِل في البطن جنينًا وهو يسمعُ حديث أمّه وأبيهِ عن الثّورة، سَيُصَادفك أوّل من حمل بُندقيَّة في وجهِ العدوّ، سيُرهبكَ بنَظراتهِ ليَميزَ إخلاصكَ من خيانتكَ، سيُواجهكَ الشّهيد بن بولعيد في كلّ زاوية والشّهيد العربِي بن مهيدي في كلّ طريق والشّهيد أحمد زبانة والعقيد لطفي والشّهيد عبَّان رمضان وأمثالهم مليون ونصف مليون شهيد وأكثر، سَتتراجعُ للخلفِ رهبةً منهم، فالرّجل منهم اليوم يكفِي لتحرير بلد.
حتّى وهم جماجم أرهبوني بنظرتهم !
-أغمي عليَّ للوهلة الأولى... خرجت من المتحف وأخذت أقرأ وأطّلع على تاريخ هذا البلد وقصّة هذه الجماجم.
عُدتُ في اليوم الموالي إلى المتحف، ولحسن حظِّي التقيت برجل هناك اسمه محمّد باحث في التّاريخ، فترجيته أن يزودني بمعلومات حقيقيّة حول هذه الجماجم، فأخبرني أنّهم احتفلوا منذ أيام قليلة بعودة بعض الجماجم لأرض وطنهم **يوم 03 جويلية 2020**، وقال لي بعظمة لسانه:

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

"عادت جَماجمُ الشُّهداء باسمةً من ثغرِ الأحفادِ، تحملُ راية الحُريَّة بيمين جيشهَا الباسل وشعبهَا المغوار وأحفادهَا الأوفياء، تتطايرُ أمنياتها نحو سماء الجزائر حاملةً أمانة الشّهداء وعهد الشّباب، تُعانقُ نسمات هواء فارقتهُ مُنذ ما يُقاربُ مِئة وسبعينَ سنةً، فقد قالُوا: لا يعرفُ نسمات العِطر إلاّ بائع المسك، فقال سليل الشّهداء: ولا يعرفُ نسمات هواء بلاده إلاَّ من كان حبلهُ موصولاً بتربتهَا، كيفَ لا وعجمَة الذّنب ها هنا بأرضنا مدفونة؟ تُنادي: جُمجمة هناكَ ورفات جسد هنَا! فبعدما ناشدوا الحريَّة مئة وثلاثين سنة أصبحَ أحفادهم يناشدون تربة بلادهم لوصول رفات أجدادهم، فلا يرتاح الجسدُ إلاَّ إذا اكتملت الأجزاء، ها هي الجماجم لا تزال تُرعب العدوّ بعيونها الغائرتين، كأنّها شاشة تبصر من خلالها بشاعة المستعمر، تنظرُ بعيون أحفادها وبجيلها الصّاعد نظرةً تعيدُ للتّاريخ مجدهُ، وكلامها ما يبينُ لا يزالُ مختفيًا، تحت لسانها الكثير من الأسرار، فهل تفصحُ لنا هذه الجماجم عن أخبارها وتاريخها وثوراتها التي أرهبت بها العدوّ؟"

-الإنسان هو عدو الإنسان يا بابلو !

-كيف استطاعوا أن يفصلوا الرّأس عن الجسد ويبعدوه عنه؟

-هكذا هم بعض البشر لا يمكنك أن تستوعب حتى بشاعتهم.

-يسلبوننا ابتسامتنا ويسرقون سنين طفولتنا وحريّتنا ثمّ يضعون أشياءنا في متاحف...

-لا يا فاطمة، يضعونها للذكرى، ليعرفوا كم عانى هذا الشّعب؟
-ماذا عن متحف طفولة الحرب الذي حدثتني عنه أنا ذاهب إليه في البوسنة قبل أن أضع متحفكم؟

الفصل الرّابع

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1-سأُخْبِرُ اللهَ أنَّ الحقيقة تؤخذ من أفواه البراءة، فالقاضي يُصدر الحكم بالإعدام على الكبار وليس الصّغار.

2- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّ بعض إخوة يوسف لا يزالون على قيد الحياة، لم يضعوه في البئر، ولكنّهم لا يزالون يترقّبون إن كان حيًّا أو ميّتا.

3- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا اشتهينا شربة ماء، فانعدمت، فارتوينا من وِردنا اليومي، فما عطشنا بعدها.

4-سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا اشتهينا شربة ماء هنية ليست من أحواض دنياهم، بل من حوض نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

5- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا اشتهينا أكلةً ساخنة في فصل شتاء، ولكننا اكتفينا بغذاء آخر لا يفقههُ إلا مسبّح.

6- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا لن نُطفِئ شعلة نضالنا، ولو أرهقتنا الظروف واستُنزِفت قوانا.

7- سأخبر الله أنّنا موقنون بنصرنا.

- فكم ركضنا خلف المال سنين وسنين؟ ثمّ صرفناه على الصّحة التي هدرت في الرّكض؟ !
-كم ركضنا خلف أشخاصٍ كنّا نحسبهم أحبّة فوجدناهم مع مرور السنين سراب؟ !
-كم ركضنا خلف الأماني الواهيّة؟ !
-كم ركضنا خلف صور كنّا نظنّ أنّها ستغيّر العالم ولكنّها غيّرت نظرتنا لهذا العالم البائس؟ !
-ها أنا لازلت أركض وراء الأحداث أتصيّدها من مكان إلى آخر، لا لشيء إلا أنّني أؤمن برسالتي، فليعمّ السّلام هذا العالم ولتعش الطفولة في أمان.
أنا في زيارة لمتحف ليس ككلِّ المتاحف، قد تسمعونه لأوَّل مرَّة، **"طفولة الحرب"** في البوسنة والهرسك، وما إن وصلت المطار حتّى وجدت سيارات الأجرة مصطفّة تنتظر الزبون.
-هاي مرحبا، تعال أنقلك للمكان الذي تريد.
-مرحبا
-بكم تنقلني من المطار إلى العاصمة البوسنيّة سراييفو؟
-لا تقلق بشأن ذلك سنتّفق اركب فقط، الطريق أمامنا لنتّفق.
-لا لن أركب حتّى نتّفق.
-لابأس، سآخذك ب30 مارك بوسني.
-كم المسافة من فضلك؟
-حوالي 30د أو أقلّ إذا لم يكن هناك ازدحام في الطّريق.

-توصلني عند باب المتحف.
-نعم اتّفقنا عند باب المتحف.
-اتّفقنا
-هيّا ننطلق.
انطلقت سيارة الأجرة تجوب بنا شوارع العاصمة البوسنيّة التي أزورها لأوّل مرّة، من أجل زيارة المتحف الذي حدّثوني عنه.
سألني سائق سيارة الأجرة، من أين أنت قادم؟
-فقلت من أرض الحرب.
فأوقف السّيارة بسرعةٍ وقال لي:
-من أرض الحرب !
-من أين بالضَّبط؟
-من أرض فلسطين.
-فقال لي بنبرة شديدة وعينين حمراوين:
هل أنت إسرائيلي؟ فقلت:
لا، "أنا الصّحفي بابلو من انجلترا، إن لم أفقد عقلي في هذه الحرب، فسأعيش قرونا وقرون".
-ما الذي جعلك تختار تلك الوجهة وتعرض حياتك للخطر؟ كان من الممكن أن تعمل الصَّحافة في أيّ مكان آخر أكثر أمانا وأكثر متعةً؟ خصوصا أنّك لست مسلما ولا عربيا !
-هل الإنسانيّة تحتاج أن تكون عربيًّا؟

-ألم يخاطبنا إلهكم في كتابكم المسمّى القرآن بيا أيّها النّاس؟
-كيف تعرف كلّ هذا وأنت لست مسلما؟
-جدّي كان يحدّثني عن تاريخ العرب، فأردت أن أكتشف العرب ورباطة جأشهم في فلسطين، فاكتشفت ما لم أتوقّعه!
-ما يجعلني في بعض الأحيان أفقد عقلي هو بشاعة العدوان الإسرائيلي في قصف البيوت وبها أطفال صغار، ذات يوم وأنا أقوم بتغطيّة إعلامية جلست على أحد الركام لإحدى البيوت، وأخذت صورا ثمّ مشيتُ قليلا، بعدها شعرتُ بتعبٍ شديد جلست مرة أخرى على الركام، وأخذت أتفقّد الصّور التي أخذتها لمحت شيئا صغيرا يلمع قربت الصُّورة وإذا بي أرى مفتاحا يتدلّى من يدٍ صغيرة، عدتُ لنفس المكان، وإذا بي أسمع أنينا تظنّ أنّه قادم من أعماق الأرض، نظرتُ يمينا وشمالا لم أجد أحد، ظننتُ أنّني أهذي أو يُخيَّلُ إليَّ، وإذا بي أسمع أنينا مصحوبا بنفس ثقيل يكاد يخرج الرّوح بعده، وقفتُ وتحسّستُ الصّوت الذي يستنجدُ بي، حتّى رأيت يدا صغيرة، ركضت إليها، لمستها، فتحرّكت، لم أستطع إزالة الركام خفت على الطفلة أن يقتلها التراب، فناديت بأعلى صوتي:
تعالوا إنّها حيّة، حيّة !
حضر مجموعة من شباب الإنقاذ، ولأنّهم يتقنون عملهم كانوا ينادون عليها: لا تخافي يا بابا

نحن هنا... حتّى أخرجوها والغبار يملأ ملابسها، الطفلة الصغيرة مذهولة لا تعرف أتبكي أم تنظر إلينا وتتساءل: من هؤلاء؟

-إنّها البراءة المكسورة بعنف الاحتلال في عيونها ألف سؤال وسؤال، سرقوا من عيونهم الأحلام ومن أفواههم الابتسامة، ورغم ذلك تقرأ في عيونهم التحدّي وروح المقاومة.

-صدقت فمآسي الأطفال أشدّ ألما فهم يتعلّمون من أمّهاتهم أنّ الألم يجعل عُودهم يشتدّ فيتعوّدوا على ذلك، ويتعلّمون من آبائهم أنّ العزيمة والتصدي للعدوّ والاستشهاد في سبيل الله مبدأ من مبادئهم التي ورثوها من أجدادهم.

-ها قد وصلنا للمتحف.

-آه، شكرا نسيتُ نفسي وأنا أسترجع ذكرياتي مع الطفولة، لازلت أعيش مع طفولة الحرب، لذلك قررت السفر إلى البوسنة لأرى بأمّ عيني مآسي الأطفال السّوريين وذكرياتهم المؤلمة.

-حتّى نحن سكان البوسنة والهرسك شهدنا ماضيًا مؤلما ليس بالبعيد، أشبه بحاضر السُّوريين.

-وداعا أيّها الرَّجل الفاضل لعلي ألقاك حين عودتي للمطار.

-يسرني ذلك، خذ رقم هاتفي واتّصل بي حين عودتك للمطار آخذك مجانا هدية منّي لك على جميل صنيعك، فالكاميرا اليوم

هي أقوى من القنابل لأنّها توصل صوت وصورة الشعوب المستعمرة للعالم.

-إلى لقاء قريب.

دخلتُ المتحف ونسيت أن أضع بطاقة الصّحافة، فبادرني الرجل الواقف عند الباب بالسؤال:

-من أنت؟

فتذكرتُ حينها أنّي الصّحفي بابلو، فقدمتُ له البطاقة وأضفتُ قائلا:

"أنا الصّحفي بابلو العائد من أرض الحرب، إن لم أفقد عقلي في هذه الحرب، فسأعيش قرونا وقرون"

-مرحبا بك تفضّل.

رفعتُ بصري إلى العنوان المكتوب أعلى المتحف بخط غليظ باللون الأسود، أسفله باب زجاجي شفاف، دخلت إلى المتحف وتوجهتُ إلى مرشد ليساعدني في التحدّث على المقتنيات الموجودة هناك.

يحتفظ المتحف بندوب وآثار الحرب لأطفال سوريين لمّا كانوا في مخيَّمات اللاجئين بلبنان، قصصهم تعكس تجارب قاسيّة ومؤلمة دلّت عليها مقتنياتهم من رسائل مكتوبة بخطّ اليد بعضها يتضمّن رسومات الفقد لآبائهم وأمّهاتهم ودمى وألعاب تروي لك مختلف القصص المؤلمة التي عاشها الأطفال السُّوريون خلال الحرب المتواصلة في بلادهم منذ عام

2011، من خلال مقتنياتهم الشّخصية وألعابهم المعروضة فيه.

هذا المعرض هو أوّل معرض في العالم يروي مأساة الطّفولة في ظلِّ الحروب خاصّة أنّ ما مرَّت به البوسنة من حصار يشبه كثيرا حصار سوريا وحصار غزّة، افتتح المتحف سنة 2017، وجمعت فيه الإدارة مقتنيات وألعاب الأطفال السّوريين، من مركز للاجئين الذين كانوا في لبنان، ونقلتها إلى العاصمة البوسنية لتعرضها على السُّكان هناك.

ذهبت إلى مديرة المتحف لتفيدني أكثر فقالت: "إنّهم افتتحوا معرض مقتنيات وألعاب الأطفال السوريين تحت شعار: "السَّلام حقّ للجميع"

وأكّدت لي أنّ المتحف يركّز على ذكريات الأطفال الذين شهدوا الحروب وعانوا من ويلاتها وتجرّعوا الألم، مبينة أنّ البداية كانت عبر جمع مقتنيات أطفال البوسنة والهرسك ممَّن شهدوا الحرب في الفترة بين عامي 1992 – 1995 مع الجيش السِّربي، وأكّدت أنَّهم يسعون لشرح معاناة وحياة الأطفال الذين كبروا في ظل الحروب.

وهناك آلاف العائلات السُّورية اضطرت إلى ترك ديارها بسبب الحرب ولجأت إلى عدّة دول، وأنّ عشرات آلاف الأطفال تأثروا سلبا من الأوضاع السيئة.

وشبّهت بين المآسي والآلام التي شهدتها البوسنة والهرسك في الماضي، بالتي تشهدها سورية في الوقت الحالي، وقالت إنّهم قاموا بجمع معلومات ومقتنيات لـحوالي 100 طفل سوري في مركز للجوء بلبنان، وعرضوا 36 منها في المتحف.

وأكّدوا أنّهم طلبوا أغراض أطفال ماتوا في الحرب ولم يكن الأمر سهلا، بل كان صعبا على الأهالي الاستغناء عن مقتنيات أبنائهم، ولكن لأنّ الغرض كان ترك رسالة للعالم ليتوقّفوا عن الحروب.

-سيّدتي هل المعرض يعرض مشاركات دول أخرى؟

المتحف يعرض لعدّة دول، هناك قصص لأطفال فلسطينيين، وأوكرانيين وأفغانيين، ممن عاشوا حياة اللجوء والحرب في بلادهم.

-لمحت حبّة تفاح خضراء في المتحف فسألت المديرة هناك عن قصّتها، فقالت لي:

يروي الطّفل صاحب التُّفاحة أنّه خلال وقت الحرب ما كان تفاح متوفِّر، ولمّا رأيتها أسرعت إليها وانبسطت بما وجدتُ، قضمتها بأسناني فتفاجأت أنّها تفاحة من شمع وليست تفاحة حقيقيّة، وأسفل التفاحة يوجد مبراة، فظهرت آثار أسنان الطفل على التّفاح.

-لازلت أأكّدُ على ضرورة التركيز على حياة وقصص الأطفال الذين عاشوا الحروب، أتنظر لهذه الصّورة لهذه الطفلة التي

تأكلُ التراب لصورة التقطها طفل سوري اسمه عرفات وتعلّم التصوير وأول صورة التقطها هو تحدي لطفلة صغيرة وهي تأكل التراب، ذكّره هذا الموقف بالحرب التي جوّعته في سوريا.

بابلو

قصصهم تشبه كثيرا قصص أطفال غزّة.

كلّ قصَّة من القصص المروية في المتحف لها جرح لا يندمل، تظهر لنا بشاعة الحروب وكيف تدفع الأطفال كي يكونوا أكثر قوَّة ومقاومة...

أنظر لهذه المفاتيح هي قصّة مروة التي تركت مفاتيح البيت للذكرى، كان بيتهم من أروع البيوت لكن تدمّر كلّ شيء.

-حتّى أطفال غزّة يحتفظون بمفاتيح بيوتهم، ويقولون سنحتفظ بالمفاتيح لنتذكّر دوما ما فعله العدو ببيوتنا.

-أنت لا تدري حجم الحزن الذي يشعر به زوّار المتحف من سكان العاصمة البوسنية، وبلحظات مؤثّرة عند اطّلاعهم على قصص الأطفال السّوريين، تشعر كأنّهم فلذات أكبادهم.

-آهٍ كم هي مدمّرة الحرب!

ليست مروة وحدها من تركت ذكراها، هناك قصص مؤلمة وهي قصّة سهام التي تعرفت على صديقة اسمها سميرة في مخيّمات اللاجئين سنة 2007، كانت صداقتها قويّة، مبنية على الأخوّة، فقرَّرت سميرة أن تهدي لسارة خاتما لتتذكّرها،

وأهدت سهام لصديقتها مشهد رسمت فيه نفسها، فالرّسم يشبهُ النّسيان، ولم يلتقيا بعد ذلك اليوم، بعدها تبرّعت سهام بالخاتم للمتحف لعلّ سميرة تزوره وتتعرّف على خاتمها و تلتقي بصديقة طفولتها وقت المحنة.

فالسّعادة أحيانا قد لا تكون مالا ولا جاها، بل تأتيك على شكل صديقة أو أخت ألفتها الرّوح والقلب معا...

فبعض الأشخاص معرفتهم هرمون سعادة لا تعادلها سعادة أخرى، تنتظرهم عند بداية كلّ طريق وعند نهاية كل طريق، كانتظار سهام لسميرة، كلّنا ينتظر رسالة من صديقة عزيزة أو صديق عزيزة عليك...

-رسالة اطمئنان

تنتظرُ رسالة تأتيكَ من شخص عزيز عليك لتبشرك أنّه في مكان ما في هذا العالم، وهو بخير ينعم بالسعادة والهناء، لا تريد منه شيئا سوى أن تكون بخير، تسأل عن حاله في غير وقت حاجتك إليه.

-كم أشتهي لقاءً بعد غياب نعيد فيه ترتيب الكلمات التي تبعثرت ونحن نردّدها في زمن الغياب.

كم أشتهي لقاءً بعد غياب نعيد فيه ذكريات التّجوّل وسط المدينة ونحن نبتسم ونتجاذب أطراف الحديث؟ !

-كم أشتهي عودة كلّ حبيب لحضن حبيبهِ، فالفقد نار تحرق القلب ليصل شذى نيرانها الجسد كلّه؟ !

-كم أشتهي وطنا بلا حروب، وطنًا يحقّق أحلامنا المكتوبة على الورق؟ !

كم أشتهي أن أستيقظ مثل أطفال العالم كلّه، أفتح نافذة غرفتي لتتسلّل منها خيوط الشّمس الذهبية معلنة محبّتي؟ ! فتهبني شعلة من الأمل والتّفاؤل، أشرب قهوتي برفقة أبي وأمّي ثمّ أذهب لمدرستي، أليست هذه أحلام بسيطة؟

-سأنتظر صديقتي سارة لعلّها تعود يومًا وتدرك أنّني كنت أهتم لغيابها وأنتظر لقاءها.

نعم كنتُ أهتمّ لغيابها، فلستُ مثل بعض الأصدقاء لا يهتمون لغياب أصدقائهم ولو كنت تدرس معهم يوميًّا أو تعمل معهم يوميا، ما إن تغادر مكان عملك فإنّهم ينسوك أو يتناسوك، ما عدا إدارة المدرسة فهي الوحيدة التي تتفقّد الغياب وتبعث للوالدين برقية: ابنكم غائب، ابنتكم غائبة، هل به مكروه؟

كانت هذه القصّة من بين القصص المؤثرة يا **بابلو** فحتّى الحرب تعلِّمنا دروسا في الحياة، وهناك قصّة أخرى تأثّرت بها كثيرا، قصّة الطفلة السُّورية شيماء، التي قدّمت سترتها إلى المتحف لتبقى ذكرى وعبرة، أخبرتني أنّها لم تنزع هذه السترة أبدًا طوال فترة الصّيف، كونها كانت هدية عمتها لها في يوم ميلادها عندما كانوا في سورية، كأنّها بارتدائها كانت تشعرُ بحضن عمّتها، وذكرت شيماء في قصتها الحياة الجميلة التي كانت تعيشها برفقة أسرتها في بلدها قبل اندلاع الحرب وكيف

كانوا ينعمون بالسَّعادة وسط جوّ عائلي دافئ يملأه الحبّ والمودّة؟ !

والله لا يكفي اليوم كاملا لسرد معاناة الأطفال، هذه مجرّد أشياء قليلة استطعنا جمعها، ماذا عن أحلامهم التي تناثرت وتبعثرت؟ ماذا عن المدرسة التي حرموا منها؟

تقول الطِّفلة السُّورية "بيان"، إنَّها لم تتمكَّن من الذَّهاب إلى المدرسة لتتلقّى تعليمها في سورية بسبب اندلاع الحرب هناك، كلّ يوم كان يمرّ كانت تتجرّع الألم وهي تنظر عبر شاشات التّلفاز لأقرانها وهم يرتادون المدرسة.

بيان لا تزال في إحدى مخيَّمات اللاجئين في لبنان، لا تزال تحلم بذهابها إلى المدرسة كغيرها من الأطفال الذين هم في مثل سنها.

لم أتمالك نفسي وأنا أقلبّ تلك المقتنيات التي هي جزء من حياة أطفال، جزء من نبض قلوبهم، جزء من أحلامهم التي رسموها، حتّى مديرة المتحف كم يكفيها من دموع؟ في كلّ مرّة تروي قصص معاناة الأطفال تتألّم وتذرف دموعا.

وأنا على ذلك الحال حتّى أقبلت فتاة شقراء تبكي بحرقة، ارتمت على مديرة المتحف، فعانقتها مديرة المتحف وأخذت تهدئ من روعها، فابتعدتُ قليلا ولكنّي اضطررت للانتظار لأنّي لم أودّع المديرة بعد.

نظرت إليَّ المديرة ثمّ جاءت نحوي وطلبت منّي الانتظار ريثما تهدئ صديقتها، وقالت لي هي صديقتي قد انفصلت عن زوجها منذ أيّام وهي فتاة طيّبة ولكنّه لا يستحقّها، كان يستغلّها فقط، فكم وقفت إلى جانبه في ظروفه الصعبة، وقد نبّهتها كثيرا منه.

بابلو

لا عليك سيّدتي؛ سأجلسُ هنا وأنتظر ريثما تكملين معها.

أجلست المديرة صديقتها، وأخذت تسمع لها بكلِّ حبِّ وحنان، ثمّ قالت لها:

استمعي إليَّ فأنا أكبر منك وأكثر حكمة...

لا تثقي بأيِّ رجل ما عدا أبوك الذي أنجبكِ، سيتسلّى بك ويرميكِ ليُكمل مع الجديد، في البداية سيخبرك أنّه معجب بك وبشخصيتك النادرة والقويّة وأنّه لم يشعرُ بما شعر إلا معكِ، سيقول لكَ أنّك ذكيّة جدا، في البداية سيوهمك أنّك أروع النِّساء و أرقاهم و بأنَّك الوحيدة التي ملكت قلبه و تمكّنت من الدخول لمملكته، سيخبرك أنَّك الجوهرة النّادرة و التي طالما كان يبحث عنها ويجاهد كي يصل إليها.

في البداية سيُقنعك أنّك الوحيدة التي يطمئن إليها قلبه وشعوره يوهمك أنّك فتاة أحلامهِ التي لطالما كان يحلم بلقائها، ستجدين نفسك داخل عالم خيالي تصدقين كلّ ما يقوله لك، فالحبّ أعمى وأنت الآن في حالة عميّ، وسوف تندمجين مع كلماته المعسولة والرنانة....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

في البداية سيسخِّر لك كل الوقت، أصبوحاته وأمسياته كلّها لكِ وحدك، ستشعرين أنّك ملكة زمانك، سيتحدّث إليكَ في كلِّ مكان هو متواجد فيه، لا يهمُّه لا المكان و لا الزمان، المهم أنّه معك سيأخذك من الجميع وسيصبح هو الجميع بحدّ ذاته، سيصبح هو عالمك سيترك أثره في قلبك، وفي جسدك الملائكي، في كلّ زاوية و ركن وكل شبر مررت به وسرت فيه و سيبقى معك كلّ تلك المدة التي هو يعرف أجلها المحدَّد و بعدها و بعد أن تكوني قد تعوّدت عليه و اعتدت تواجده سينسحب فجأةً و دون سابق إنذار، سيسحبُ السّجاد من بين رجليك و ستعيشين الغياب واللوعة والألم، الدُّموع، الشّوق، الحنين، سيرتجف قلبك حين يحنُّ إليه، وستبكين كالطِّفل الصَّغير، ستعانين الانتظار ، الوحدة ، القلق حتّى تنزع الغشاوة التي على عينيك..

وسيوصلك للنهاية، سيصبح مشغولا جدا عنك بحجّة الظروف والعمل، هاتفهُ غير مشحون، أو معطّل أو سُرق.... حتى عندما تتصلين أو تبعثين له برسالة لا يراها أو لا يقرأها إلا بمرور ساعات أو أيّام...

ستغضبين وتبكين مرات عديدة، ستعاتبين نفسك على غبائك، ستصبحين غريبة كما كنت قبل لقائه، بعدما أخذك من الجميع سيعيدكَ وقد سلب جوهرك وحطّم قلبك، سيترك فجوة داخل قلبك فجوة فارغة كلما تذكرته تتألمين بشدة، سيتركك وحيدة جدا مثلما فعل الآن، الآن فقط ستكتشفين غباءك وتعودين أدراجك محملة بمرارة الخيبة حولك وحدك و سوف تنعزلين عن الكلّ، وستحتاجين لوقتٍ لتشفي من حبه وتتعافي منه...

ولكن لن أتركك وحدك، ستتجاوزين ذلك، فليس كلّ الرّجال مثله، ستلتقين بمن يشبهك، ستلتقين بتوأم الروح.
ولن يكون مرتاحا في ضميره أبدا سيزوره طيفك دوما ويذكره بك، لن ينسانك أبدا. لأنك كلما ستتذكرينه ستقولين تركتك لله بابلو شعرتُ حينها بألم شديد وتذكرت رسائل ليليا التي لا أذكرها.
لم يكن الأمر سهلا عليّ أثناء زيارتي لذلك المتحف، شكرت مديرة المتحف ومن ساعدنا في سرد القصص كلّها التي كانت موجودة في المتحف، ثمّ انصرفت، وقفت عند الباب لأستأجر سيارة أجرة وأذهب للفندق، ثمّ تذكّرت أنّ سائق سيارة الأجرة قد أعطاني رقمه، فاتّصلت به على الفور.
ألو، مرحبا
-مرحبا
"أنا الصّحفي **بابلو** الذي فقد عقله ويقبع الآن في مستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"
-تذكّرتك، أين أنت أنا أمام المتحف، هل يمكنك المجيء الآن لأخذي إلى الفندق؟
-طبعا، أنا قريب منك، يمكن ذلك، معي شخص هو كذلك ذاهب لنفس الفندق، أوصله وأرجع إليك.
-لا بأس يمكنك إحضاره معك وأخذي مادام أنّ وجهتنا واحدة.
-اتّفقنا إذا.

بقيتُ واقفا أنتظر سيارة الأجرة، لم تمرّ ثلاث دقائق حتّى وصلت، ركبت السيارة.

-مرحبا

-مرحبا بك.

-هيّا أخبرني عن شعورك وأنت تزور المتحف لأوّل مرّة.

-لا أستطيع الكلام حتّى دعني وشأني.

(ينطق بعدها الرجل الذي كان في السيارة)

-زرته عشرات المرّات.

بابلو

لماذا؟

-أنا عربي.

بابلو

من أيِّ نقطة في خريطة العالم تكلّمنا؟

لا يهمّ من أيِّ نقطة أنا، من أيّ البلاد العربيّة أنا، أنا إنسان وفقط، بلادي عاشت الحرب، فالتّاريخ دوما يذكر القادة ولا يذكر الجنود، وإذا ذكر الجنود فإنّه ينسى الأطفال، إنّها الفئة الوحيدة المهمّشة والتي تستثنى من الحرب.

لازلت أتساءل كلّما أزور هذا المتحف بأيّ ذنب قتل ذلك الطِّفل الصغير الذي قال لكم في آخر رسالةٍ له:

"سأخبر الله بكلّ شيء"

-هل سيخبر الله عن تآمر الغرب أم عن تخلّي الإخوة؟

فنحنُ لحدّ الآن لا نعرفُ من قتل الطّفل؟ أهو الصَّمتُ الرَّهيبُ الذي يخيّم علينا؟
قتله دون سلاح، فالصّمت في كثير من الأحيان يقتل دون كلام ويصيب الهدف دون سلاح، دون قنابل.
وصلنا الفندق، دفعنا ثمن الأجرة ودخل كلّ واحد منّا غرفته ليستريح من ذكريات يوم حافل، فبنسبة إليّ كان يومًا تاريخيا قد لا يشعر الآخرون به، لكنّي أشعر بنفسي تغيّرت بعد هذه الزّيارة، أخذت الأسئلة تحدث بركانا في عقلي:
-من أين لهؤلاء الأطفال كلّ هذا الصّبر؟
أدركت حينها أنّ إيمانهم بخالقهم هو من يلهمهم القوّة والصّبر.
غفوت دون عشاء لأني شعرت بتعبٍ شديد، استيقظت على صوت المنبّه...
وإذا به هاتفي، رسالة من صديق اسمه محمّد.
يقول محمّد هذا الصباح عبر بث رسالة مباشرة إلى الجميع:
كلمتين من قلب غزّة ويشير بأصبعيه "إحنا في غزّة صلِّينا على كلّ أمّة محمّد صلاة الغائب لا أنتم حاضرون ولا أنتم غائبون، فنحن في غزّة صلينا عليكم صلاة الغائب، والفهيم بيفهم"
لربّما كان بحاجة لأخيه هارون ليشدَّ بهِ أزره ويُشركه في أمره، فالأخ يشدّ عضده بأخيه، فمن لك بعد الوالدين إلا أخ تشدّ به عضدك.

لم يكن أهل غزّة في حاجة لأحد كما هم بحاجة لسند في هذه الفترة الحرجة، فكم من امرأةٍ استشهد زوجها وترك لها أيتاما؟
-كم من يتيم في غزّة يعاني اليتم والفقر والحصار؟ 100، 1000، 10000، 100000، كم من كافل في غزَّة؟
لازلت ذلك اليوم محفورا في ذاكرتي الهشّة الذي فيه ارتقى 100 شهيد في لحظة واحدة وهو يؤدّون صلاة الفجر، والأمّة نائمة عن قضيّتها الأولى.
تركتُ تلك الذّكريات وأسرت لغسل وجهي ولبس ملابسي، ثمّ اتّصلت بسائق الأجرة وطلبت أن يسرع لأنّني تأخرت قليلا وموعد الطّائرة يقترب.
حان وقت العودة لأرض الحرب، فقد حدثت أمور كثيرة في غيابي....

العودة لأرض الحرب

عدتُ لإتمام مهمّتي، وجدت أرض الحرب تنتظرني، وأوّل من التقيتها الطفلة "ندى" وهي تحملُ دميتها في يدها، بادرتها بالكلام:
(رسالة "ندى" النّاجية الوحيدة من عائلتها، ماتت أمّها وأبوها)
-مرحبا يا عمُّو، كيف حالك؟
"الحمد لله عمو"

"أنا اسمي بابلو الصّحفي الذي فقد عقله في الحرب وهو الآن يقبع في مستشفى المجانين لأن العقلاء خارجا"
(ضحكت ندى، مع أنّه لا أحد يسألني عن هذه الجملة أبدا)
-ندى ايش صار معك يا عمّو
"قصفوني اليهود"
-كيف طلعت أنت؟
"من تحت الرّدم"
-أنت لوحدك عايشة
"استشهد أبي وأمّي، بقيت لوحدي"
حضنتها ثمّ طلبت منها دميتها لأضعها في معرض الأطفال بغزّة، أردت أن أفتح لهم معرضًا، فقالت لي:
حتّى دميتي يا **بابلو** آخر ما بقي لي من رائحة أبي تريد أخذها!
-هل عدوّ الإنسان إلا الإنسان؟
خُذها يا "بابلو" وضعها بالمعرض لعلّها تروي لكم بعضا من معاناتي، فأنا جزء من هذه الأرض المباركة أرض زيتون.
أخذت تلك الدميّة الصغيرة وكانت من بين المقتنيات التي جمعتها، كنت آخذها لغرفتي وأسجل اسم الطفل أو الطفلة التي وهبتني ذكرى الحرب، ولن أنسى أبدا أول ما اقتنيته كان المفتاح، منذ تلك اللحظة آمنت بفكرتي وأيقنت أنّ المفتاح هو السرّ لكلّ مغاليق الحياة.

فلطالما كان المفتاح رمزا للأمل والعودة والانتماء، فكلّ مفتاح هو شفرة لرسائل مخفيّة قد تغيّر مصير الشّخصيات، ولم يكن المفتاح وحده من يحمل لغز تاريخ دولة بأكملها بل أيضا هناك أشياء أخرى كانت تحمل جزءا من هذا التاريخ.

واصلتُ مهمّتي بحذاء جديد نحو جمع مقتنيات الحرب، لأحتضن حذاء شهيد يحتفظ به الابن ذكرى من والده.

-هل لازلتم تحتفظون بذكرى من أحبابكم الذين ودّعوكم؟

فأنا لازلت أحتفظ برسالة أبي التي تركها لجدّي وهو يطلب منه أن يبعثني لأرض الحرب، ولحدّ اليوم لم أكتشف بعد اللغز من وراء هذه الرّسالة، ولكنني أشعر أنّني قريب من كشف هذا اللغز، لازلتُ ثابتا أنتظر إلا أنّني تهاوتيت ذات يوم أمام طفل صغير....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لازلتُ ثابتًا أنتظر !

ذلك الطّفل الصغير الذي أمسكَ ريشةً ويدهُ ترتجفُ من شدّةِ البردِ، فقدماهُ مغروستان في الأرض، نظرَ إليه ورأسهُ يتمايلُ ليعدّل الصّورة التي ستحصدُ الملايين من المُشاهدات، نطقَ حينهَا الطّفلُ:

-كِلانَا في موقفٍ واحدٍ !

أنتَ ثابتٌ لا تهتزُّ لتُبدعَ في التقاط الصُّورة، وأنا ثابتٌ لا أستطيع الحِراك من شدَّة البرد ورجلي في مغروسة في الوحلِ !

-أمّا يدكَ فهيَ ترتعدُ لخوفك من صوتِ البنادق أن تصيبكَ وأنت تحصلُ على لقطة اليوم، أمّا أنا فيدي تسقطُ هنا وهناك، فأحاول أن ألملمها فأجدها لا تُطاوعني وترتعش كلّما سقطت في مكان لتجمعَ بقايا الحنين لأرض الزَّيتون.

سقطت يدي للمرَّة الأولى فرفعتها والوحل قد التصق بريشتي، فرسمت ما أملاهُ عليَّ الوحلُ وريشتي كان تطاوعه ويدي كالعادة ترتجف من الجوع، والمصوّر لا يزالُ يلتقط صورته !

انتظرت أن يحرّكني من الوحل، لأنّي كنتُ عاجزًا عن ذلك، وهو ظنَّ أنّي ألعبُ، وبعض الظنَّ إثمٌ.

لازلتُ ثابتًا أنتظر !

ابتسم هو لأنَّ قطرات المطر بللت عدسات صورته فكانت الصُّورة التي التقطها رومنسيّة، فالجميعُ يعشقُ الغيث، ويعشقُ التبلّل فيهِ.
أمّا أنا فابتسمتُ لأنّ قطرات الغيث تناغمت مع دموعي فأخفتها عنهُ، فظنَّ أنَّ قطرات الغيث قد بللت وجهي، فالرّجال ثابتون لا يبكون ولو كانُوا أطفالًا.
سقطتْ ريشتِي فحملتها مرّةً أخرى وقدْ تزيّنتْ اللّوحةَ بقطراتِ الغيثِ فرسمتْ دُموعًا لا يراها العالم بأكملهِ إلّا أنا !

الرّسالة السابعة (رسالة وحذاء)

(حذاء يروي تجاعيد الزمن بالمعرض استقطب الكثير من المعجبين)
واصلت المسير نحو الرّكام الذي كتب طريقي ومسار حياتي، وإذا بي ألتقي بطفل فلسطيني يحتضن حذاء أبيه الشّهيد، أظنّ أنّ عمره يتجاوز القرن، فالحكمة التي يتحدّث بها تجاوزت سنّه المفترض، ينادي ويقول:
"يا أبي كنت الأمان، كنت لمّا أدخل البيت وأجد حذاءك كأنّي وجدت الدّنيا وما فيها"
فقلت:
-أبوك ارتقى شهيدا يا إسحاق، ما حاجتك لهذا الحذاء؟
"سأحتفظ به أمام الباب، فالعالم بعد رحيل أبي أصبح مُوحشًا لا يُؤتمن"

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

"سأحتفظ بهِ أمام الباب ليعلم كلّ مار أو زائر أنّ أبي لا يزال في البيت معنا، يحمينا بذكراه، فكم من بيوت سرقت فرحتها عندها غاب حذاء الأب، وأخذت هيبتها، فأبي كان يُرحّب بالضُّيوف دائما ويستقبلهم استقبالا حارا، وهو يهلل: يا مرحبا يا مرحبا، أنتم أصحاب الدار ونحن الضيوف، أخاف أن أتخلّى عن حذاء أبي، فيمرّ أصحابه ممّن كانوا يرون حذاءه فيعلمون أنّه ليس في البيت فلا يزورونا، وينسون معايدتنا"

في الفجر التي رحلَ فيه أبي انكسر ظهري وبُترت ذراعي وسقط سقف بيتنا، فلا أمان بعدهُ، أنظر كم حذاء بالباب؟

كلّهم حضروا ليودّعوا غائبا كان الحاضر الأوّل، إنّه أبي، ولأوّل مرَّة أنظر إلى حذاء أبي، لم أكن أفعل ذلك مسبقًا، كان كلّ مساء يعود متعبًا من العمل ومنهك القوى، يترك حذاءه خارجًا ويدخل حافي القدمين ولمّا أسألهُ:

-يا أبي لماذا تترك حذاءك خارجًا ونحن ندخل أحذيتنا؟

-ألا تخاف أن يسرقوه؟ فيردّ مبتسما:

-ليس عندنا سارق يا بني؟

السّارق ماذا يفعلُ بحذائي؟

سيكلّفه أخذه تصليحا عند الإسكافي، ويبذل فيه مالا ولن يفيده ذلك في شيء.

-كنت أضحك، لم أدرك ما كان يقصده أبي... اليوم أدركت ذلك...

-بعد استشهاد أبي أخذتُ حذاءه المهترئ الذي أخذ يروي لي معاناة أبي وهو يسعى لإحضار القوت لنا من مكان إلى مكان، كأنَّه سعي بين الصّفا والمروة، فأنا وأختي الصغرى بالنسبة له جبلان صغيران يقعان في بيت قلبه، يتفقدنا قد النوم وصباحا ويطبع قبلة على جبيننا ويقول هذه أحد أركان السعي لدي، فكنت أقول له:

"عندما أكبرُ يا أبي سآخذكَ أنت وأمّي لزيارة مكّة المكرّمة"

"هذا حذاء أبي يروي لي معاناته وهو يبحث لنا عن قطرة ماء في المدينة كلّها..

"يروي لي كم بيتا مهدوما مرّ به؟"

"يروي لي كم وخزا أصابه؟"

"يروي لي أنّ أبي من كان يحمل ثقلا وليس الحذاء من كان يحمل أبي !"

"تروي لي تلك التشقّقات وذلك التقطيع أنّ خريطة العالم كانت في حذاء أبي وأنا لم أكن أشعر بذلك، فحين تنعدم الإنسانيّة تزلّ قدمها"

-أدركت حينها يا **بابلو** أنّ حذاء أبي كان قديما جدا، مثقوبًا من أسفل، مليء بالغبار، خيوطه أكل عليها الدّهر وشرب كأنّها خيوط بيت العنكبوت من هشاشتها.

مرّ يوم، ثمّ يومان من العزاء اختفى الجميع واختفت الأحذية من الباب، إلا حذاء أبي بقي شامخا يشعرنا كأنَّه يطلب منّا

الصّمود والبقاء، فهذه الأرض تستحق الحريّة، وهذا الحذاء يستحق البقاء ليكون شاهدًا على جرائم الكيان الصهيوني!

رحل أبي وبقيَ حذاءه يروي لنا ضحكات أبي، قسوة الحياة على أبي، تشقّقات رجل أبي!!..

لم أكن أسمع مشية أبي صباحا، فحذاؤه استوى على الجودي...

لم أكن أعرف قيمة ذلك ولم نكن نمعن النّظر في أشياء كنّا نراها بسيطة ولكن لمّا تغادرنا تصبح باهضة الثمن، نتمنّى لو تعود ولو دقيقة من الزّمن، ولكن المغادرون لم يعودوا يوما إلا الشّهداء فإنّهم يعودون كلّ مساء، حذاء أبي اليوم يساوي كنوز الدّنيا، لا يقدّر بثمن... فالأشياء بقيمة أصحابها الذين تركوا عطرهم وعرقهم بها، لا بقيمتها الماديّة.

فكيف يمكنني أن أهبك حذاء أبي؟

فأنا ألتقي مع أبي كلّ حين، وأخاف أن يعاتبني إذا سلّمتك حذاءك، سأنتظر زيارة أبي لي بالمنام واسأله إذا قبل بذلك.

-وأين نلتقي؟

"يوم النّصر بالمسجد الأقصى"

ولكنّني لستُ مسلما، لا أستطيع دخول المسجد الأقصى.

"لا عليك، الوقت كفيل بأن يدلّك على من أوجدك في هذه الحياة، فالنبتة الصّغيرة لم تكن تعلم يوما أنّها ستصبح شجرة

عظيمة، ابحث في ذاتك عمّن أوجدك ومرحبا بك معنا للصلاة بالمسجد الأقصى"

كان كلام هذه الطفلة الصّغيرة التي تتجاوز بحكمتها 300 عام كالصّاعقة، ولأوّل مرّة أسال نفسي، من أوجدني على وجه هذه الأرض؟

-هل ديانتهم الأصح أم ديانتنا؟

حملت ذلك السّؤال معي وأخذت أفتش عن واجدي لعلّي أجد نفسي، وقلت للطفلة وداعا، قالت:

-سنلتقي في المسجد الأقصى وأسلّمك مفتاح بيتنا لتضعه في متحف الأطفال وحذاء أبي.

أدركت حينها أنّ الطفلة تريد أن تمرّر إليّ رسالة، وأنا كنت أحاول أن أجمع أكبر قدر من المقتنيات الحربيَّة، ولم أكن أدرك أنّني أبحث عن خالقي، شعرت براحة تامّة حين حدّثتها وقررت الذهاب إلى المسجد والبحث عن معلومات أكثر، فقد فتحت شهيتي للبحث عن ذاتي الضائعة.

فقلت لها: إن شاء الله

"فأخذت تقفز فرحا، وتقول: يا الله، يا الله، يا الله"

-ما بك؟

قلت: "إن شاء الله"

فأدركتُ حينها أنّني أندمج تدريجيًّا مع المجتمع العربيّ دون أن أشعر، انصرفتُ بعدها لأكمل مسيرة البحث عن مقتنيات أخرى وأنا أبحث عن واجدي.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

الرِّسالة الثّامنة بقلم الأطفال

سمعت من بعيد أصوات أطفال يردّدون كلمات، فاقتربت منهم، وإذ بي أجد حوالي 30 طفلا في اسطبل فارغ، يجلسون على الأرض و يدرسون، والمعلمة تكتب على السبورة، نظروا إليّ جميعا، شعرت المعلّمة بشيء ما، فاستدارت إلى الأطفال.

ألقيتُ عليهم تحيّتهم المتعارف عليها والتي تدعو للسّلام في كلّ المعمورة:

-السّلام عليكم

"وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته"

-هل تسمحين لي بسؤال الأطفال؟

"لا" نحن ندرس الآن، لا تضيّع وقتنا، يكفينا ما ضاع منّا ومن أعمارنا في هذه الحرب اللّعينة"

-حسنًا، سأنتظر خارجا، ولمّا تكملون أتواصل معكم.

انتظرت خارجًا قرابة ساعة ونصفٍ من الزّمن، وأنا أسمع كلاما ليس بكلام البشر، كان هذا الكلام يخترق روحي، ويرمّم ما بها من جروح، سمعت من قبل أنّه من كتابهم المنزّل على نبيّهم، لم أشعر حتّى وجدت نفسي أكرّر معهم الآيات للسورة التي كانوا يحفظونها، وكان ذلك اليوم سورة الخلاص، وهي تتحدّث عن خالق هذا الكون الذي لم يلد ولم يولد، بدأ في اليوم يتسلّل الإيمان إلى قلبي وقرّرت أن أبحث في هذا الأمر.

وختموا الحصّة التعليميّة بأنشودة الأطفال التي يردّدونها كلّ يوم:

والله لن أنسى مسجدنا الأقصى* وقبة الصَّخرة تبكِي من الحسرة
تقول يا ربَّاه، يا واهب الحياة * بعونك اللَّهم، أكتب لنا النّصر
وشجرة الزَّيتون بغصنه الحنون * يبكي على شهداء أرضنا الحرة
يا لوعة النَّفس عليك يا قدس* وأنت في البلوى والعيشة المرة
يا إخوة الإسلام سيروا إلى الأمام*بالعزم والإقدام بصحبة القرآن

ها هي المعلّمة تكملُ حصَّتها، فذهبتُ إليها مباشرة وطلبت من الأطفال أن ينتظروني، سألتها:

-كيف تستطيعينَ تعليمهم في هذا الجوّ البارد والوسائل المعدومة؟ فقالت لي:

"ماذا أفعل برأيك، أتركهم يضيعون، دعهم يتجرّعون ألم تعليم ساعة ليعيشوا حياة كاملة"

انصرفتُ عنها لأنّي شعرت أنّها تعرضُ عنّي وأقبلتُ على الأطفال وأنا في عجبٍ من أمري، يضحكون ويبتسمون كأنَّهم يبنون حياتهم بأنفسهم، رغم الأحياء الخاوية على عروشها، والبيوت المدمّرة، لا مدارس مفتوحة، ولا مساجد ولا جامعات ولا طرقات مستوية يرسمون عليها مستقبلهم، ولا مستشفيات مجهزّة، حتّى المخابز أغلقت جلّها، انعدام الماء الصّالح للشرب، رغم الدمّار المحيط بهم إلا أنّ قلوبهم تزهر إيمانًا،

هذا ما جعلني أبحث عن دينهم الذين يملأ قلوبهم صبرا وعزيمة وإرادةً، على عكسنا نحن فعندما تنعدم الحلول يلجأ الشباب للانتحار لوضع حدا لحياتهم، ولكن هنا الحياة تتجدّد، النّبتة الصّغيرة يخرج من بين الصّخور.
تقدّمت نحو طفلةٍ لا يتجاوز عمرها العشر سنوات، سألتها:
-كيف الحرب معاكم؟
ردّت بلهجتها الجميلة القريبة من القلب:
"بشعة، بشعة، بشعة؟" ثمّ تسكت لبرهةٍ ثمّ تواصلُ:
"كُنت ما أحلاني، هَا القَدْ شقراء" ثمّ تصمتُ حينا، ثمّ تواصل:
"ولمّا جات الحرب تخربنا من الحرب كلّها، كنت أحلى من هيك، بس الحرب خربتني"
طبطبتُ على رأسها وقلت لها: ستنتهي الحرب وتعودين جميلة كما كنت.

ثمّ نظرتُ إلى الطّفلة الصّغيرة صاحبةَ العشر سنوات "سيدرا" ذات الوجه الجميل تمشي وهي ترفع الرأس عاليًّا:

مرحبا عمّو

مرحبا

- لماذا لا تلبسين شحاطا (حذاء)؟

قالت بحسرةٍ والدّموع تغسلُ عار من خان وتخلَّى وقد وضعت كلتا يديها النّاعمتين على عينيها، كأنّها بها تريد إخفاء دموعها:

-ضاع شحاطي منذ عشرة أيّام...

بابلو

عشرة أيام ولم تشتري غيره !

هنا تتوقّف عدسات التّصوير لتنهمر عيناها بالدّموع وتجهش بالبكاء، هنا فلتتوقّف شعارات حقوق الطفل، أين هي بالله عليكم؟

تمضي سيدرا وقد تركتني وراءها بنظرة عيون تقول لي:

"غدا لناظره قريب غدا ستشرق شمسنا وتغرب شمسهم للأبد"

غدا سيكون لي مصنعا للأحذية وأتصدّق به لأرواح شهداء غزّة فقط لا غير.
توجّهتُ لطفل آخر لم أسأله، لكنّه بادرني بالكلام...
منذُ سن السّابعة لم أر جدران بيتنا الذي رسمت عليه حمامة بيضاء تحمل بين رجليها الصّغيرتين رسالة، أذكر لما مرَّ عليَّ ذلك الجندي المستبدُّ صاحب الأنف الحاد والعينين التي سرقت

من عُشبنا اخضراره ومن شعبنا أرضه، أذكر استهزاءه بي وقهقهته التي ملأت أرجاء مسمعي، وبعدما شبع قهقهة نطق بلسان عربي:

-قل لتلك الحمامة أن ترحل، فلا مكان لها بيننا...

قلتُ: بيننا وبينكم بائع ومشتري...

ذهب ليعود في اليوم المُوالي بمدفعهِ وبرمية واحدة تهدَّم البيت ونسفت أحجاره التي يبلغ عمرها أكثر من عمر المستعمر، استدار خلفه فوجدني واقفا جلدا، ثمّ رفعت بصري أعلى فرفرفت حمامة فوق رؤوسنا، فجحظت عيونه، ثمَّ أعاد جمع شتاته في داخله، وقال:

ماذا أنت فاعل الآن أيُّها الطفل بحطام بيتك؟

قلتُ: الحطامُ لك والأرض لنَا، الأوراق لكَ والجذور لنا، فوكزني ببندقيته على صدري فسقطتُ مغشيا عليّ، التطمَ رأسي بحجر، استيقظتُ على أضواء غرفة المستشفى، فسألت الممرضة: كم لبثت؟ قالت: ستّة شهور !

فقلت: أين أنا؟ فقال الطّبيب: "أنت في أرض الزيتون، أخبَروني أنَّ بيتك تهدَّم ولم يبق من أهلك أحد فأخذتك"

"تقول ليس لي أحد، والأرضُ!"

قال: أيُّ أرضٍ، أنت ستعيش في النّعيم وتقول لي الأرض.

أليست الأرض هي الأمّ؟ قال: بلى وصمت مطوّلاً

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

كان الرّسم أحبُّ الهوايات لقلبي، كنت أرسم مدينتي بقبة صخرتها وبقناديل مساجدها ....لازلت أرسم حلمي على ورق، وأصنع زروقي من ورق لأنّي سأبحرُ يوما وأعود لقدسي وأخرج منها الغاصب المستبدّ.

السّاعة تشير إلى الخامسة مساء...

وأنا أقوم بعملي كالعادة وإذا بصوت القنابل يُزعزع المكان، التفتُ يمينا وشمالا، لم أشعر بنفسي إلّا وأنا داخل المستشفى...

من أنا؟

لا أدري!

أيّ مستشفى؟

أظنّ أنّني فقدت ذاكرتي لأولد من جديد.

ما باليد حيلة، ليس سهلا أن ترى دولةً عربية تعاني وأنت قابع في مكانك لا تستطيع الحراك ليس سهلا أن ترى الأطفال يقتَّلون ويشرَّدون، هذا قُطعت ذراعه وهذا بترت رجله وهذا نُسف رأسه، وهذا يحملُ أشلاء ابنتهِ في حقيبته، وهذا يحمل رأس أبيهِ في يده!

يحملهُ من مكان إلى مكان بعيد، اختلفت الشّهادة اليوم، فالذّراع أصبح شهيدا، واليد أصبحت شهيدة والرأس أصبح شهيد والأشلاء المتناثرة هنا وهناك قد أعلنت شهادتها.

يحمل الابن رأس أبيه في كيس والدّماء تتقاطر عليه وعلى ملابسه، فيقول الصّحفي "بابلو:"

-ضعهُ على الأرض قد تلطّخت ملابسك بالدّماء، فيصرخ الابن البار في وجه الصحفي ويقول:

هذا أبي!

ثمّ ينظرُ الصّحفي إلى الأب الذي يحملُ ابنتهُ في حقيبة والتّعب باديا على وجهه، يجرّ رجليهِ، يكاد يسقط والعرق يتصبّبُ من جبينه، فيقول له الصّحفي بابلو: ضعها عنك إنّها ثقيلة.

فيردّ الأب وقد خنقتهُ عبرة:

"إنّها ليست ثقيلة إنّها خفيفة الرّوح والظّل، إنّها بهجة البيت ومصباحه، إنّها ابنتي".

هنا تذكّرت قصّة «**هو ليس ثقيلًا، إنَّه أخِي**»، حينما تتحدَّث الأخوّة تتجمَّعُ مشاعر الإنسانيّة كلّها في الأخ، فهل بقي في زماننا مشاعر الأخوّة الحقيقيّة أم أنّها مجرّد شعارات ألفناها من زمننا الماضي؟

أصبحنا نعيش الماضي في الحاضر، نعيشُ على أنقاض حضارة الماضي وعلى أقوال السّلف الصّالح، نعيش على سيرة عظماء حفظنا أقوالهم وتأثّرنا بأعمالهم، بينما هم قالوا وفعلوا اكتفينا نحن بالقول، أمّا الفعل ما يكاد يأخذ منَّا مسافة أمر العقل وتطبيق اليد، فالكلّ يحفظ شعرا و أحاديث وقرآنا عن الأخوّة، يبهرك بزخرف القول ويجعلك في اللحظة ذاتها تدمع عينك وترتقي روحك وتسمو، ما إن تبتعد مسافات قليلة حتّى يعود القلب قاسيًّا كما كان أوّل مرّة.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

تعود صورة الطّفل لعام 1945م، في نهاية الحرب العالمية الثانية، وقف هذا الصّبي الياباني أمام محرقة حرق جثث الموتى وانتظر دوره في حرق جثّة شقيقه الصّغير، فبعض الدّول لهم عادات حرق الجثث.

"جو أودونيل" مصوّر أمريكي التقط هذه الصُّورة حينها وتوفي في عام 2007، كشف في تصريحات سابقة تفاصيل هذه اللحظة المؤثِّرة قائلا:

"إنّ الطِّفل كان يعظّ شفتيه بشدّة لمنع البكاء وأنَّ الدّم كان يسيل من زاوية فمهِ، وعندما قال له حارس محرقة الجثث: «أعطني الحُمولة التي تحملها على ظهرك»، ردّ الصّغير عليه قائلا: «هو ليس حملًا، إنَّه أخي»، ومنذ تلك اللحظة المؤثِّرة، باتت تُستخدم هذه الصُّورة كرمز للقوّة والأخوَّة.

الأخ جثَّة هامدة لا يعلمُ أنّهُ يعيشُ في قلبِ أخيهِ، فلو مات حقيقة لتركهُ في المكان الذي وجدهُ فيهِ، وإذا ما ولّينا وجوهنا للمسجد الأقصى رغبة في الصّلاة هنا، سنجد آلاف الجثث لإخواننا الغزاوِيين، آلاف الجثث لأبنائنا الأطفال الفلسطينيين، هل حملنا جثَّة أخينا كما يحملها هذا الطّفل؟

إنّه يعلّم البشريّة جمعاء أنّ الأخوّة دمع يحرق الخدّ وغصّة بالقلب وحمل وجب عليَّ، كما علّمنا الغرب أوّل مرّة كيف يدفن الأخ أخاه"

-هل حملنا غزّة على أكتافنا؟

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-هل حملنا فلسطين على أكتافنا؟

أم أنّنا اكتفينا بالتّحمّل لتلك المشاهد الدّامية التي لا يتحمّلها أصحاب القلوب الضّعيفة.

وأنت تنظر، ها نحن نعيش اليوم على أنقاض الماضي، ها نحن نعيش اليوم على فعل كان، فأصبحنا نجلسُ في المقاهي ونجلس في كلِّ مكان ونتحدَّث في الأسواق وفي الحافلات يوم كنَّا ويوم كناَّ، ونذكر **المعتصم** لمَّا نادت عليه المرأة وقالت: وا معتصماه

صرخة امرأة في زمن العُظماء كانت كافيةً لاستجابة رجل عظيم، وصرخة الآلاف من الحرائر في زمن الجبناء كانت جافية، لا آذان صاغية، قالتها إحدى حرائر غزّة لما كانت إحدى الصّحفيات تصوّر:

-لمين بدّك تصوري؟

-لمين بدّك تصوري؟

وأعادتها على أسماعها عدّة مرّات، قالتها وشرارة الغضب تخرج من عينيها، تتناثر هنا وهناك كتناثر العقد.

ها قد وصلنا لمرحلة الضّياع، حينما يضيع صوت الثّكالى، وتذهبُ ذبذباته الصّوتية صوب السّماء، فنحن اليوم نخبر الله لا غير، فسكان الأرض لا يسمعون، صمّ بكم عميّ، هم من كان يسمع، ها هي قصّة المرأة التي استنجدت بالمعتصم بالله أثناء غزو الاحتلال البيزنطي للعديد من المدن التّابعة لخلافة الدّولة

العباسيّة، وكان اختيار ملك الرّوم على مدينة "عمّورية" التي تفرّدت بموقعها الاستراتيجيّ وبجمالها وسحرها، فهي تقع على الحدود الفاصلة بين الدولة العباسيّة وكمَّا جرت العادة في معاملة البيزنطيين السيّئة للمسلمين، ولكن هناك فرق كبير بين معاملة المسلمين للأسرى، و السّبايا و معاملة الروم، أسروا عددا كبيرا من المسلمين وأهانوا نساءهم، وأثناء قيامهم بأسر إحدى المسلمات، صرخت بكلّ حرقةٍ وأسى، أشهرَ صرخةٍ دوّنها التّاريخ بأحرفٍ من ذهبٍ، بل دوّن صوت الملبّي، فلولا صوت الملبّي ما كانت القصة خالدة، فالذي صنع الحدث هو موقف الرّجال، نادت المرأة بأعلى صوتها: "وا مُعتصماه"، "وا مُعتصماه"، وكان رجل عربي حاضرا فنقل الصّرخة على مسمع أمير المؤمنين، فنزل عليه الخبر كالصّاعقة، واليوم ليست صرخةً واحدة بل صرخات نساء فلسطين، صرخات أطفال عزّل، صرخات رجال، صرخات دولة كاملة اسمها :"فلسطين" والسّامع كلّه العالم، هيهات هيهات بين رجال الأمس ورجال اليوم، رجل واحد من عظماء التّاريخ يُقابل اليوم عالما بأكملهِ، عالما متحضّرا ينادي بحقوق الإنسان، وحقوق الطفولة في العيش، عالم لا يحرّك ساكنا، لكن؛ المعتصم بالله كتب رسالةً للبيزنطيّين مضمونُها النُّصرة، وكلماتها:

«مِن أمير المؤمنين إلى كلب الرُّوم أخرجْ المرأة من السِّجن وإلا أتيتكَ بجيش بدايتهُ عندكَ ونهايتهُ عندي».

ونحن حدود غزّة وفلسطين مع إخوتها ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

لم يُلقِ البيزنطيّون اعتبارا لكلمات الخليفة العباسيّ "المعتصم بالله"، فأعدّ العُدّة وخرجَ بجيشٍ كبير قاصدا مدينة عموريّة، وهناك اندلعت مَوقعةٌ كبرى فاستخدم في فتحهِ المجانيق دامت فترةً زمنيّة ليست بقصيرة، فتح فيها المسلمون بلادا سُلبت منهم في رمضان سنة 223 للهجرة، وانتصرَ المعتصم بالله للسيدةِ التي صرخت باسمه واستنجدت برجل عربيّ.

جهّز "المعتصم بالله" الجيش كلّه ولبّى نداء امرأة واحدة، لأنّه يدرك أنّه لو لم يلبِّي النّداء لأصبح الأمر وصمة عار يسجّلها عليه التّاريخ، اليوم كم امرأة نادت علينا؟

-كم امرأة صرخت بأعلى صوتها:

يا عالم؟!

يا عرب؟!

يا ناس؟ ! في قطاع غزة، قد اكتفوا اليوم من النّداء، لم يعد النّداء مسموعًا، بل بات مرفوعًا للسّماء متبرئا ممّن سمعوا ولم يلبّوا، ها هم اليوم قد تخلوا عن النِّداء ونادوا على ربِّ السّماء بعثوا بدعواتهم إلى الله سبحانه وتعالى وقالوا: "معنا الله"، فما بالك بمن يقول: "إنّ ربِّي معي"

هكذا يعيش الأهل في غزّة فلم تكون السّنة الدّراسية مثل السّنوات الباقية، نشاهد الأطفال في بعض الأحيان يدرسون في الشّوارع، يختارون زاوية من زوايا البيوت المهدّمة، يدرسون على أنقاض الهدم، يدرسون في كلِّ مكان يحاولون جمع الحروف العربيّة التي تتناثر هنا وهناك، فهل يستطيعون ذلك؟

نرى محاولات من فتيات وفتية، إنَّهم فتية آمنوا بربِّهم يحاولون أن ينشروا العلم، يحاولون أن ينشروا الأمل ويجمعون شتات ذلك الهدم، الأطفال يحملون محافظهم، فرّطوا في كلّ شيء إلا المحفظة والقلم.

يمرّ عليّ مشهد لن أنساهُ أبدا، طفلة صغيرة عمرها لا يتجاوز السّبع سنوات تحملُ محفظتين واحدة على صدرها والأخرى على ظهرها، والتّعب باديا عليها، فلم يبق من البيت إلا الرُّكام، تركت كلّ شيء، لكنَّها لم تترك محفظتها، تركت لعبها التي تلعب بها كلّ يومٍ، ولكنّها لم تترك محفظتها، تركت ملابسها وأشياءها الأخرى لكنّها لم تترك محفظتها.

***

يعود الصّحفي **بابلو** للأماكن التي أصبحت ركاما، يلمح طفلةً صغيرةً سبقها أهلها وعادت لوحدها لبقايا المنزل، فظنّ أنَّها نسيت شيئا ما أو تريد أخذ شيء معيّن، أو ربّما كانت تودِّع البيت وتودِّع الهدم وتودع المكان، لكن لا شيء من هذا القبيل،

تركت كل شيء ولكنّها عادت وتذكرت شيئا آخر أهم بكثير، أتعرفون ماذا أحضرت؟

يسألها الصّحفي **بابلو**

- لماذا عدت إلى الركام يا ابنتي؟

قالت: "لأحضر مفتاح المنزل"

"عن أيّ منزل تتحدثين؟"

- ألا ترين أنّ كلّ المنازل أصبحت ركاما؟ !

قالت: "إنّه هناك، ها أنذا أنظر إلى الباب فوق الركام والمفتاح لا يزال باقيا"

الصّحفي بابلو

وماذا ستفعلين بالمفتاح؟

"نحنُ العربُ لا نترك مفاتيحنا لغيرنا ولو جثينا على ركبنا، سآخذه لأتذكَّر كلّ يوم ما فعله الكيان الغريب بأرضنا، سأحتفظ بهذا المفتاح معي لكي لا أنسى ما فعله العدوان الإسرائيلي، ساترك معي هذا المفتاح لأعود يوما إلى هذا المكان وأبنيه، أنا لست مثل صاحب سور الصِّين العظيمة الذي فتح الباب وخان الوطن"

عن أيّ خيانة تتحدّثين؟

"علّمني أبي أنّ الصينيين بنوا سور الصِّين العظيم لمنع الأعداء من دخول بلادهم، لم يكن له مثيلا في ردّ كلّ الهجومات، ولكن

تعرَّضت الصين للغزو ثلاث مرات بعد ذلك، ولم يمنع السور العظيم تعرض البلاد للخطر"

الصّحفي بابلو

-وكيف تمّ غزوها إذا كان السُّور عظيما؟

"سلّم حارس الباب المفتاح **!**"

المشكلة لم تكن في هشاشة السُّور، وإنّما في خيانة حارس باب السور.

-لا يكفي أن تبني سورا عظيما، وتهمل بناء الإنسان...

نحن أطفال غزّة يتمّ بناء شخصيَّتنا قبل أن نولد، فنحنُ من يسمع صوت المدافع قبل أن يخرج من بطن أمّهِ، نحنُ من يتدرّب على الجوع والعطش منذ كان كونا في بطن أمّه، نحن من يتدرّب على الشّهادة ونحن نسمع زغاريد الأمّهات وهنّ يكبرن الله أكبر، ابني شهيد، الحمد لله، نحنُ من عرف أنّ الأرض المباركة محتلة من كائن غريب قبل أن نولد، نحن أسطورة لن تتكرّر"

بابلو

-هاي إلى أين أنت ذاهبة؟

هل تظن أنّني سأذهبُ دون رجعه، بل أنا ذاهبة إلى ربّي سيهدين، ذاهبة لأعود ذات يوم فلا يغرنَّك المظهر ولا يغرنَّك المكان والقرية الخاوية على عروشها، هم يقولون عبر

شاشاتهم، عبر عالمهم الافتراضي أنّ فلسطين لم يبق منها شيء...

إنّ غزّة أصبحت ركاما، أصبحت فقط حجارة وترابا، هل نسوا أنّ شجرة الزيتون موجودة ها هنا بأرضنا، مثل ما عمرت شجرة الزيتون سنعمّر نحن أيضا، لن نغادر هذا المكان مهما حاول العدوان الإسرائيلي أن يقضي على النسل الفلسطيني بقتله للأطفال سيولد الفلسطيني، وسيخرج من هذه الأرض المباركة محرّرها، فلا تغرنّكم قوّة الكيان الغريب فهو يستمد قوته من كيانات أخرى.

إذا كانت قوته ظاهرة فلنا ما يخفى عند الله سبحانه وتعالى، لا تغرنّكم الدّبابات، فهذا العالم اليوم لن تفنيه دبابة ولا قنبلة نووية..

من سخافة التافهين الذين يصدّقون الأقوال، هذا العالم سيفنيه الخالق الذي أوجده، اليوم نحن من يُواجه هذا الكيان الغريب الذي يبسط رداءه، وغدا سيأتي الدور على بلدان أخرى، تذكر كلامي جيدا يا **بابلو** فنحن أطفال غزّة تنطقنا الحكمة التي ورثناها من أجدادنا الأنبياء الذين عبروا من هذا المكان...

رسالة التّوأم بختم الشّهادة

استخراج شهادة ميلاد مع شهادة الوفاة في ساعةٍ واحدة...

من أكثر القصص التي تأثّرتُ لها حين تغطيتي الإعلاميّة قصّة التوأم وجرح الأم والأب لم يندمل بعد... فالفقد كان حلما جميلا...

تزوَّجا في تموز 2023، وكان موعد سفرهما إلى مكان إقامة الزّوج في الإمارات يوم 12 تشرين الأول، وبسبب العدوان الإسرائيلي على غزة اضطرَّ للسّفر إلى رفح، مكث هناك هو وزوجتهُ الحامل بالتّوأم، يومًا بعد يوم يرى بطن زوجتهِ يكبر، فيكبر حلمهُ برؤيتهِ أولاده التوائم، تسوَّقا عدّة مرات لشراء ملابس التّوائم جاء اليوم الموعود أخذها للمستشفى .

زوجها يتحدّث...

"كان نفسها تشوف شهادات الميلاد، لتعرف كيف سميت التّوأم، كنت أمزح معاها أنِّي سميتهم غير ما كانت تريد، لما استخرجت شهادات الميلاد

دخلت جُوا لقيتها مكفّنة والأطفال وطفل ليس ظاهر منه شيء، رفضوا أنِّي أشوفهم، ولكن أنا صمّمت أشوفهم، ملابسهم لا تزال كما هي، أواعيهم ما لبسوهم لسا، والله ما لبسوهم لسا، زي ما همَّ"

آهٍ؛ كم هو مؤلم هذا الفقد !

الفصل الخامس

مستشفى العقلاء من 1907-2024
المجانين خارج المستشفيات والعقلاء داخلها

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1-سَأُخْبِرُ الله أنّ البشر متغيّرون متلوّنون، يلبسونَ ألفَ قناعٍ في اليوم، ويغيّرون جلودهم آلاف المرّات، فما عدتُ أعرف الوفيّ من الخائن.
سأخبر الله أنّكم أخطأتم في حقّي كما أنّي أخطأتُ في حقّ نفسِي، فلا أنتم طلبتم العفو ولا أنا رحمتُ نفسي من تأنيب الضّمير.
2- سَأُخْبِرُ الله أنّكم تقبعون داخل سجونٍ بنيتموها بأفكاركم ثمّ تتذمّرون من الحياة.
3- سَأُخْبِرُ الله أنّكم تضعون قيودا على أيديكم في حين خلقكم الله أحرارا.
4- سَأُخْبِرُ الله أنّ هذا العالم يا أصبح مُخيفًا، مُكهربًا، يملأه الخداع، الحرب، الخذلان، الكلّ مُصاب بالضّغط، بداء السّكري، الوباء.
5- سَأُخْبِرُ الله أنّ بعض البشر تركوا في هذه الدّنيا أثر، بطيب كلامٍ، وجبر خواطرٍ وابتسامة في وجه مهمومٍ.
6- سَأُخْبِرُ الله أنّ بعض البشر تركوا أثر كمن دق في باب اللوح مسمارا ولما أخرجه ظهر له الأثر.
7- سَأُخْبِرُ الله أنّ قلوبنا سامحت كلّ من أذاها، فمن نحن؟ نخطئ بالليل والنهار ثمّ نستغفر فتغفرُ لنا.

سيجارته بيده اليمنى، وما إن دخلت الطّبيبة حتّى أطفأ السيجارة ووضعها في مكانها المخصّص لها.

-مرحبا دكتور

-مرحبا تيريزا

-تفضّلي اجلسي

-إلام تنظر؟

-إلام ينظر إليه مريضك الجديد عبر النّافذة الزّجاجيّة.

-مريضي !

-نعم إنّه مريضك الجديد، ستجدينه يعلّق صورا على نافذته الزّجاجيّة فلا تنزعيها لأنّه يتحدّث إليهم يوميا وقد يساعدنا ذلك، كما تعلمين أنّ الحرب في الدّولة العربيّة فلسطين أتت على الأخضر واليابس، ومن نجا من الحرب قد لا ينجو بعقله مثل حالة **بابلو.**

-من **بابلو؟**

-مجنون جديد أحضروه بالأمس أو فاقد لذاكرته لست متأكدا وحالتهُ مستعصية نوعا ما وأرغب بتكليفك أنت بمتابعة حالتهِ والاستماع إليه وتحليل ما يقوله حرفا حرفا وكلمة كلمة، فقد نكتشف علاجه من كلامه، ولأنّي أدرك يقينا أنّ لديك الصّبر الجميل لمعالجة مثل هذه الحالات وسيمكث معنا مدّة طويلة حسب تقريره الطّبي.

-تيريزا:
-أحبّ الحالات المستعصيّة، فهي الباعث على استمراريّة البحث في مجال العلوم.
(يكّلف "ألبرت" الطّبيبة "تيريزا" بحالة "بابلو"، يسلّمها التّقرير الطبّي ويطلبُ منها الاطلاع عليهِ، اطّلعت الطّبيبة "تيريزا" على التّقرير الطبّي وهي تحدِّق بذهول في وجه الطّبيب، إنّهُ.....)
-منذ أن دخلت مجال العمل هنا بالمستشفى لم تصادفني حالة مثل حالةِ **بابلو** إنّ ما عاشهُ يفوق الوصف،كنت أسمعهُ وكنت أتوق أن أكون معالجتهُ، لا يكادُ يتوقّفُ عن الكلام، في بعض الأحيان تنزلُ الدّمعة من عيني عندما أسمع صوتهُ وقد تعبت أحبالهُ الصّوتيّة من كثرة الكلام، بالكاد يخرجُ النّفس من رئتيهِ، يصبح لونه شفاهه شاحبا يعتليهما بياض جاف، وما يقوله خطير، هل يؤدّي إلى إعدامهِ.
-هل سمعهُ أحد؟
-لعلّ هذا ما يريدهُ ربّما يريد إتمام مهمته من هنا، يرغب بأن يسمع العالم معاناة أطفال غزّة، ولكنّ الأغرب من ذلك أنّ ما يقولهُ حقيقة تدركها بالعين المجرّد والعقل الباطن.
الطّبيب "ألبرت":

-مجنون يفصحُ بالحقيقة ! أليس ذلك مخالفا للمنطق والعقل أيتها الطّبيبة؟ !

-لقد كان مراسلا صحفيّا في قناة End of the word-The end of humanity

-ما الغريبُ في الأمر؟

-إنّ هذا المراسل الصّحفي يتحدّث يوميا لوحده ما بين 150 و180 كلمة في الدّقيقة، بينما نتحدّث نحن الأشخاص العاديون ما بين 100 و130 كلمة في الدقيقة، وهو يتحدّث تارة بوتيرة سريعة وتارة أخرى بوتيرة بطيئة.

الطّبيب "ألبرت":

مهما كان متوسّط معدّل الكلام في المحادثة، فمن المتفّق عليه أنّه يجب التّحدث بوتيرة أقلّ في العروض التقديمية العادية، أمّا الخطب فوتيرتها أقرب بما يلقيه "بابلو"

-أتركك الآن حان وقت زيارتي لمريضي "بابلو"

المصافحة المحرّمة إنسانيًّا!

تأتي الطّبيبة الشّقراء (تيريزا) يوميّا لزيارة بابلو، لعلَّهُ ينبهرُ بجمالها وشعرها الذّهبي وعطرها الباريسي، لكنّه لا يلتفتُ لها، لكنّها أغرمت به.

-مرحبا بابلو

-مرحبا

تمدُّ يدها لمصافحتهِ، فيضعُ يدهُ خلفَ ظهره، فلا يمدُّ يدهُ، فقالت لهُ: آه؛ أنت مسلم، أعتذر فأنتم لا تلمسون المرأة إلا إذا كانت من محارمكم.

ظنّ بابلو أنّها يهوديّة.

بابلو

لست أدري من أنا، مع أنّي أحترمُ كلّ الدّيانات وما رأيت من المسلمين في قطاع غزّة إلا كلّ جميل.

-إذن لماذا لم تصافحني يا بابلو؟

-هل خَشيتَ أن تقع في غرامي؟

-ليست لي يد لأصافحك بها

-لو صافحتني سينبتُ في كفّك الياسمين !

-الياسمين في أرض الزّيتون وليس في كفّك العفن!

-قلتُ لكِ ليست لي يد لتصافحيها، قد بترها أبوك ونسفها أخوك وابن عمّك ورئيس بلادك المجرم النتن الذي سيموت موتة فرعون، سيصبح أشبه بالهيكل العظمي، سينظر بعينيه لكلّ جرائمه، سيزوره كلّ الأطفال الذين بتر أيديهم وهو مستلقٍ على فراش الموت، يراهم ولا نراهم، سيتمنّى الموت آلاف المرّات ولن يأتيه حتّى يدفع ثمن الأبرياء.

-لا أُصَافِح.

الطبيبة "تيريزا"

-أبي ! أخي ! ابن عمّي

بابلو

-أغربي عن وجهي.

-سمعتك قبل قليل تتحدّثين مع مريض باللغة العبرية.

-ها، ها، ها نعم تعلّمتها فقط

-هيّا صافحني

-لا لا رغبة لي في ذلك

-لا أصافح

-لا أدري إذا كانت يدك ملوّثة بالدّماء؟

-أنظر يداي ناعمتان، لونها أبيض، ليس فيهما شيء، لو لمستهما لشعرت بالدّفء والحنان.

-ربّما قتلت طفلا، أو بترت يدهُ، أو قصفت بيتا فأصبح ركاما، أو تيتّم على يديك أطفالا، ورمّلت نساء، لستُ أدري!

-أنا لا أشارك في الحرب يا **بابلو**، لا أبرح المستشفى إلا في فترة الرّاحة السّنويّة.

-أتُدخنين؟

-نعم أدخّن؟ هيّا أشعلي سيجارة.

-ماذا؟ أشعل سيجارة، هذا ممنوع وقت العمل؟

-إذن قتلتِ أطفال غزّة.

(تتمتمت تيريزا: إنّه مجنون حقًّا)

-ماذا تقولين؟

-لاشيء

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

(أخرجت "تيريزا" علبة السّجائر وأشعلت سيجارة، قال لها **بابلو** حينها:

-أتنظرين لهذا الدّخان المتصاعد الآن هو حال غزّة؟

-أنتَ مجرمة مثلهم، قاتلة محترفة بصمتِ رهيب، بكلّ سيجارة تشعلينها تقصفين بيتًا، وترملين عائلة.

(ابتعدت قليلا ثمّ عادت)

-إنّها مجرّد سيجارة أؤذي بها نفسي ولا أؤذي بها غيري.

-كلَّا، قد هدمت بها وقتلت وشردت.

-كيف ذلك؟

-أتعرفين أنَّ شركة مالبورو تدفعُ تبرعات يومية لفائدة إسرائيل، في كلّ صباح تدفعُ شركة فيليب للسّجائر ما مقداره 12 %من أرباحها للكيان الصّهيوني؟

تتفاجأ الطّبيبة "تيريزا"

ينظرُ إلى زُجاج النّافذة وينطلقُ في تعليقهِ الصَّوتي الذي يُبكي الحجر ويُدمي البشر...القلوب هناك تنفطر، ترى النّاس سكارى وما هم بسكارى أنا المُراسِل بابلو من عين الحدث، عين واحدة تبصر وبقيّة العيون لا تبصرُ ينقلُ إليكُم الخبر في ثانيَّتهِ ودقيقتهِ طازجًا كوجبة غداء ساخنة، وإذا لم تروني فاعلموا أنّني لست من عالم الأحياءِ.

أحييكم من هنا بعدما ظننتُ أنّني أخبرتكم بكلّ شيء، وجدت الأطفال هناك قد أخبروا الله بكلّ شيء.

يدخل جوزيف لزيارة صديقهِ فهو الوحيد الذي يستعيد عافيتهُ معه، ويبثهُ أحزانه، يتحدّث إليهِ كما كان سابقا... يسألهُ جوزيف لتسمع الطبيبة وتسجّل من بعيد حالته وسبب جنونه ودخوله مستشفى العقلاء.

-حدّثني عن حلمك يا بابلو فلطالما كنت المميّز بيننا بصوتك وجرأتك وإقدامك...

إنَّهُ حلم حياتي يا جوزيف أن أكون مراسلا صحفيّا، منذُ نعومة أظافري وأبي يناديني الصّحفي الصّغير، كثيرا ما كنتُ أجلسُ أمام شاشة التّلفاز وأنا أتابع شريط الأخبار، يأخذني الصّوت المتعدّد للمُراسل حسب كلّ حدث.

جوزيف:

ولماذا اخترت التغطيّة الإعلاميّة هناك بفلسطين حتّى أصبحت بلا عقل.

بابلو

إنّه شريط واحد تابعته **عام** منتصف مايو/أيار 1948 غيّر وُجهتي كليا ونظرتي للعالم وللصّحافةِ بأكملها.

جوزيف

الصّحافة ! وظيفة كغيرها من الوظائف المملّة والقاتلة.

-أنت تغامر بحياتك من أجل نقل الأخبار والحرب قائمة هناك، لو كنت مكانك لاخترت برنامجا آخر غير هذا...

بابلو

وماذا سأختار في رأيك أيّها الفيلسوف الذي لم ينفع حتّى نفسه ويريد بفلسفته أن ينفعني أو يدفعني للهلاك.

جوزيف

ربّما برنامجا للغناء لأستمتع قليلا وأحصد آلاف المشاهدين.

يفقد **بابلو** وعيه ثمّ يعود وقد عادت إليه ذكريات مؤلمة، فيقول:

آلاف المشاهدين، كلا؛ آلاف الأرواح تُحصد هناك...

(يقفُ أمام النّافذة مرّة أخرى ويسترجع كل المشاهد المؤلمة الزلزلة لعقله...)

انظر هناك

(يشير بأصبعهِ ناحية النافذة)

أشلاء الأطفال تتناثر هنا وهناك، انظر يده الصّغيرة هنا ورجله هناك...

لا، لا، توقّف (يضع كلتا يديهِ على رأسه)

انظر إلى الأمّ الطّفل لا يزال حيًّا تحت الأنقاض...

هيا يا صغيري حارب من أجل أن تحيا أمّك فلسطين، فأمّك لم تقم بحمايتك أنت لتحيا هكذا وتموت هي، بل لتحيا فلسطين.

هيا أعطني يدك، التّراب يتساقط، قلبي يكاد يتوقّفُ، الطفل يبكي بأعلى صوتهِ لا يريد ترك حضن أمّهِ الشّهيدة لابدّ أن عطر الشّهادة تركه متمسكا بها.

-أتسمعونه يبكي.

هيّا؛ يا بابا يا ماما

-يزداد صُراخ الطِّفل في أذني اليمنى التي هي ناحيته، أمدّ يدي شيء ما يمنعني، لا أدري ما هو...
(يضرب بابلو الزُّجاج بقوّة ظنا منهُ أنّه في الواقع يريد إنقاذ الطّفل، يسقط مغشيا عليه وقد جرى الدّم بعدما انكسر الزّجاج)
هتف الجميع **بابلو، بابلو** نطق أحد العقلاء:
-لقد مات
ردّ الآخر: لو مات لمات في الحرب، أين كانت القنابل تقذف من كلّ جانب، لا أحد يموت هكذا إلا إذا سقطت ورقتهُ، وبابلو لم تسقط ورقته بعد حتّى يخبرنا بكلّ ما حدث وبما أخبره بهِ جدّه في نكبة منتصف مايو/أيار 1948.
هرعت الممرِّضات والأطبّاء لنقل **بابلو** إلى غرفة الاستعجالات، وبقي جوزيف ينتظر ليطمئن على صديقه **بابلو**
بات جوزيف ليلتهُ على الأرض وهو ينتظر أن يستفيق **بابلو**
مرّ عليه الحارس الليلي وقال له: تنتظرُ من؟
قال **جوزيف**:
المُراسل الصَّحفي الذي فقد عقلهُ، وقالَ:
"ما حاجتي لعقلٍ يدّعي العلم والتطوّر ولم يدرك حقيقة الإنسانيّة، فحتّى الحيوان يحنّ على حيوان آخر، ولكنّ الإنسانية اليوم تجرّدت من إنسانيّتها وعادت لحيوانيّتها وإلا ما تفسير ما يحدث في العالم؟ القويّ يأكل الضعيف، يقتلون الأطفال

الأبرياء العزل، وفي الأخير سيأخذ الله الجميع، القويّ والضعيف".

في اليوم الموالي.....

يستفيق **بابلو** وأوّل ما سمع صوت **جوزيف** وما إن فتح عينيهِ أبصر **جوزيف**

فقال: ليتك دولة يا **جوزيف** فتنتصر لفلسطين

-ليتك قانونا يجرّم قتل الأبرياء وانتهاك الحرمات

ابتسم **جوزيف**

-دولة !

-قانون !

-ما كلّ هذا؟

-تكفيني صداقتك يا **بابلو**

(لا يسترجع بابلو عقله إلا مع جوزيف)

-هيّا انهض لتعود لغرفتك، أنت بخير وبصحّة جيّدة

-هيّا استند إليّ وضع كتفك على كتفي، فأنا أمسكك جيّدا

(يجهشُ جوزيف بالبكاء والدموع تنهمر كنزول غيث)

-ليت بعض الدّول مثلكَ يا جوزيف فتستندُ إليها فلسطين كلّما جُرحت ولكنّها خُذلت!

-خذني إلى غرفتي أرجوك...

اصطحب **جوزيف** صديقه **بابلو** إلى غرفته وساعده ليتمدّد على كرسيهِ، التفت بابلو إلى النّافذة ثمّ وقف ثمّ جلس وأخذ يتحدّث إلى **جوزيف** وهو ينظر بدقّة متناهيّة إلى شاشة النافذة.

كلّما رآه المرضى في مستشفى العقلاء وقف أمام النافذة يهرعون إليه ليستمعوا لحديثه وانفعاله وطقسه المتفجّر الذي لا يعرف الاعتدال كلّما تذكّر فلسطين، فهو لا يروي قصص ألف

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

ليلة وليلة أو قصة كليلة ودمنة أو قصص العشق والحبّ بين حبيبين، بل قصّة حبّ خالد، قصّة حبّ للزيتون ولأرض الزيتون، فكلّ قصص الحبّ كاذبة لا أحد يستشهد من أجل أحد، فقصص الحبّ يموت العاشق إذا تركته حبيبته لأنّه أناني يريدها لهُ وحده، الحبّ الحقيقي لأرضكَ أن تتركها تعيش في سلام أبدي.

هذا هو الحبّ!

-لا تسمح لأحد أن يغتصب أرضك وأنت تنظر..

-لا تسمح لأحد أن يدنّسها برجلهِ القذرة..

-لا تسمح لأحد أن يحمل علم بلادك ويده ملطّخة بالدّماء..

-لا تسمح .....

بابلو

أخبرك بسرّ يا جوزيف لا تخبر بهِ أحد، مع أنّه لم يعد سرا ما دام أنني سأخبرك به...

أتعرفُ لماذا؟

السرّ يكون للحبيب والقريب القريب، وكلّ حبيب لهُ حبيب وكلّ قريب لهُ قريب، ولكنّك صديق وقريب.

جوزيف

أفصح، فالحقيقة تؤخذ من أفواه المجانين !

بل من أفواه الأطفال.

لمّا كنتُ طفلا في السّابعة من عمري كان جدي يروي لي قصّة ظننتها خياليّة، ولكنّني لمّا كبرت وجدتها حقيقة، لكنّ اللغز الذي يحيّرني لماذا كان يخبرني بالحقيقة وفي تلك السنّ بالذات، وهو من كان يصنع منّي مراسلا صحفيا..

جوزيف

-ماذا أخبرك جدّك يا **بابلو** أخرجت قلبي من مكانهِ بلفّك ودورانك.

بابلو

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

أخبرني جدّي بالحقيقة الكاملة التي يعرفها العالم كلّه ولكنهم يدّعون أنّهم يعرفون ولكنّهم لا يعرفون، والذين لا يعرفون، فهم يعرفون نهاية اليهود ونهايتهم معهم.

أخبرني جدّي أنّنا دخلنا إلى فلسطين حفاةً عراة، لا نملك ما نسدّ بهِ رمق جوعنا، كُنّا نربط على بطوننا من شدّة الجوع.

جوزيف: هذا أعرفه.. وبعد أعطني الجديد الذي لا أعرفه...

دعني أكمل يا **جوزيف** ولا تقاطعني...

عاد في هذا الوقت **بابلو** لحالته الهستيرية وهو يتذكّر أطفال غزّة، وقفَ أمام النّافذة وقد احمرّ وجهه وجحظت عيناه:

انظر هناك إلى الأطفال جياع يبحثون عن لقمة طعامٍ...

انظر إلى ذلك الطّفل البالغ من العمر عشر سنوات يمشي حافيا يتسابق من أجل أخذ لقمة أرز لأمّه وإخوتهِ.

-يا إلهي!

-ألم نكن نحن الحفاة؟

-ألم ندخل لبلادهم حفاة عراة؟ واليوم نحن من تعرّى من الإنسانيّة.

انظر إليهِ، يحمل الأرز الأصفر لم يجد إلا قليلا، يجمعهُ بأصابعهِ الصَّغيرة ويضعه في كيس بلاستيكي صغير.

-ليتهُ يستطيع جمع العرب المتناثرة كحبات الأرز التي جمعها بيده اليمنى...

بابلو

أتدري يا **جوزيف** أخبرني جدّي أنّنا نحن اليهود أردنا أن نقيم وطنا لنا هنا وكنّا شرذمة قليلة تعدّ على الأصابع، كان سعينا بتحالف مع دول أخرى، فقد كنّا مشرَّدين هنا وهناك لا وطن لنا، وكان الكثير منّا يثيرُ المشاكل في بعض الدّول، ففكرت هذه الدّول إقامة وطن لنا، ووقع الاختيار على الأرض المباركة "فلسطين" وهذا هو السّبب الرئيس للحرب، فإقامة دولة إسرائيل يكون على أنقاذ فلسطين، وهو ما أكّده عضو الكنيست الإسرائيلي السابق "يشعياهو بن فورت" بقوله:

"لا دولة يهودية بدون إخلاء العرب من فلسطين ومصادرة أراضيهم وتسييجها".

-لماذا قصد العرب بالذَّات وفلسطين بالذّات؟

-أتعرف هنا مربط الفرس!

-لستُ فيلسوفا ولست خبًا ولا الخب يخدعني.

اليهود لم يأتوا إلى فلسطين لأنَّهم كانوا مشرّدين وبحثوا لهم عن وطن يجمعهم.

لا؛ بل لأنَّهم يعرفون أنّ فلسطين مهبط الأنبياء، فيها مكان يريُح الرُّوح ويرفعها عاليا، فيه المسجد الأقصى، مكان مقدّس، صلاته تعادلُ خمسمئة صلاة في مكان آخر.

-كان يمكن أن يختاروا أيّ دولة أخرى غير فلسطين.. ولكنّهم اختاروا فلسطين

-يا **جوزيف** أنت لا تفقه شيئا من سياسة الحرب، لقد انتهج الاستيطان اليهودي منهج الكلاب.

استولى على الأراضي الفلسطينية، وقام بطرد سكانها الأصليين بحجج واهية وسياسة ممنهجة ومدروسة، فقد قدّم وثائق دينية وتاريخية مزعومة ليوهم نفسه أنّه على حقّ وأصحاب الأرض يعرفون الأرض لمن؟

استمدّ الكيان الصّيهيوني دعمه من دول غربية متواطئة معه قد نظّم حركة تحت مسمّى "الحركة الصّهيونية" في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر من أجل بسط نفوذهِ واستحواذه على أكبر مساحة من الأراضي الفلسطينيّة.

هذا ليس جديدا يا **بابلو**

السِّيناريو الاستعماري يتكرّر، لكن هذه المرّة الأرض أرض مباركة صلّى فيها الرّسول محمّد بالأنبياء، فكان إمامهم ولكنّ الهدف واحد هو طمس الهويّة العربية الإسلاميّة... هيهات هيهات أن ينتزع المستعمر هوية شعب فلسطيني أو جزائري أو عراقي أو سوري أو يمني تربى في الزوايا والكتاتيب، فقد قالها جون روبرت في كتابه:

"أراد الاستعمار الفرنسي أن يبيد الشّعب الجزائري كاملا كما أبادت أمريكا الهنود الحمر ولكنّها اصطدمت بمجتمع تشكّل من بوتقة الحضارة الإسلاميّة"

في كلّ بلد عربيّ يُوجد مجتمع تشكّل من بوتقة الحضارة الإسلاميّة، في كلّ حارّة عربية توجد النّخوة والشّهامة العربيّة، في كلّ بيت عربيّ يوجد رجال أعزّة تأبى نفوسهم الذلّ والمهانة، والاستثناء في كل بلد عربي يوجد من تشبّعوا

بالخيانة فباعوا الدّار بثمنٍ بخس وسلّموا المفاتيح بمصافحة الشمال، فاليمين لا ترضى الخيانة.
قالتها الأمّ التي فُجعت في أبنائها وقدّمت الواحد تلو الآخر فداء للوطن ففي كلِّ بيتٍ من البيوتِ العربية يوجد الثُّوار وتتواجدُ "الخَنْسَاءُ" التي تنجب الرّجال، في كل بيت مقدسي ارتقى شهيد، في كلّ بيت مستعمر توجد "الخنساء" مُكْتَحِلة العَينين، مُخضَّبة بالدِّماءِ، موسُومة على الجَبِين بماءِ الشَّهادةِ، يظهرُ عليهَا تاج الشَّرفِ والوقارِ مُكنَّاة بأمِّ الشَّهيدِ، أو أخت الشَّهيد أو أرملة الشَّهيد أو ابنة الشَّهيد أو خالة الشهيد أو عمّة الشّهيد أو جدّة الشّهيد التي لا تزال تروِي لنَا قصَّةَ استشهاد أبنائِهَا الثَّلاثة، لتعيشَ ولادةَ الألمِ للمرَّةِ الثَّانيَّةِ، لِتبْعَثَ من فجوات التَّاريخ رُوحًا تُعيدُ لهُ نفسَهُ الهارب من بين أيدي الثَّائرينَ، وتُسقط دُمُوعًا من مُقلتين ابيضَّتَا حُزنَا، فنرى من خلال ودقِهَا إحدى حلقاتِنَا الضَّائعة بين طمسِ الهويَّة وبُزوغِ شمس الحريَّة، تلكَ الحلقة التي نسيَ التَّاريخ تدوينهَا، حتَّى صِرْنَا ننزِفُ ضياعَ أحداث ثوراتنا العربيّة، فأبت تلك الحلقة إلاَّ أن تصرخ في وجهِ النِّسيانِ، وتُعلنَ ثورةً من ثورةِ الذَّاكرة المنسيَّةِ الهاربة من الحقّ ومن قول الحقيقة، فالكلّ يهربُ من الحقيقة...

يجاملُ...

ينافقُ....

يطبّع...

ولا يواجهُ...
الحقيقة التي تهربُ منَّا رُوَيدًا رويدًا، وها نحن نلهَثُ وراءهَا لنقبضَ على كلمةٍ أو جملةٍ أو حادثةٍ من ظلالِ الأمس لأنّ اليوم أشدّ وأمرّ من العلقم، كم من دولة عربيّة عانت ويلات المستعمر ولكن الصُّمود يصنع الفارق، سيفعلها الشّعب الفلسطيني مثلما فعلها الشعب الجزائري الذي ذاق الويلات وأبشع أنواع التعذيب التي لا يمكن أن تخطر على قلب بشر.

تتراءَى الأحداثُ "لبابلو" كأنَّه أمامَ شَاشَةِ عِملاقةٍ لعرض فيلم لن تتكرَّر حلقاتهُ أبدا، حين يستحضر صورة الأمّ المفجوعة في فلذات أكبادها، فقد زفّتهم كلّهم زمرا إلى الجنّة، فعُيُونُ الأمِّ مهمَا صغرت، فهي بالنسبةِ للذَّاكرةِ كوكب الأرض يعكسُ همجيَّة المستعمِر في الشُّعوب التي تعشقُ الحريَّة، فعشقُ الأرضِ مُنذ الأزلِ نارُ تحرق العاشق، إلاَّ أنَّهُ يجدُ نَشْوَتَهُ في ذلكَ، فالحُرُّ يَفُكُّ عنه القيودَ والسَّلاسلَ والأغلالَ، ولا يرضى أن يعيشَ مُقيَّدا حتَّى وإن وَضَعْتَ في فمِهِ ما لذَّ وطاب، ولو وُضِعَتْ في كِلتَا يَديْهِ كنُوز الأرضِ، وما أنت بواضعِهَا أيُّها المستعِمر... تتلألأ عَيْنَي الخنساء بالدُّموعِ، فتَظْهَرُ لهَا الأحداث كأنَّكَ أمام عرض لأكبر الشَّاشات وأصدقها، احتارت الأمُّ من أين تبدأ؟ فسألتني:

- أأبدأ من أينَ بدأَ، أم مِنْ بداية حكَايتِي؟

-من هو؟

-الذي بدَّدَ أحلامنَا وحرَمنَا نومنَا، الذي جعل نهارنا أسودَ وليلنا مبصرًا، ننامُ بعينٍ وعين الله تحرسنَا، العينُ تحرس والأذن تسمع والجوارح تضطرِم نارها.

-إنَّهُ الاستعمار يا بابلو...

فكلّما رأيت استشهاد فلسطيني أتذكّر استشهاد أبنائي، أشعر بألم كلّ امرأة فلسطينية، أشعر بكبدها يتمزّق داخليا وهي تبتسم خارجيا، فكلُّ نساء العالم يلدن للحياة إلّا المرأة العربيّة الفلسطينية فإنّها تلد للشّهادة.

-لا عليكِ، ابدئِي من حيثُ بدأت حلقة عشقٍ فِلذة كبدك للأرضِ والوطن.

كم تأثَّرتُ لحالِها؟! كُلَّمَا شاهدت عبر الفضائيات ما يحدث لغزّة وخانيونس وغيرها من الأماكن، بل فلسطين كلّها تتعذّب وتدخل في حالة هذيان لا يوقفها أحد عن الكلام، لكنّ كلامها كلّه حقائق لا يسردها إلا من عايش تلك الفترة.

كلّما أعادت الأمّ فتحَ صفحات التذكّر للثّورة والنضال وسرد بعض أحداثها فإنَّها تشردُ بذِهْنِهَا بعيدًا عنَّا، وتتعرَّضُ لوعكةٍ صحيَّةٍ، لأنَّهَا عايشت جزئياتها مع فلذات أكبادهَا، عاشت الخوفَ والألمَ والحسرةَ والخذلان الذي تعيشهُ الأمّ الفلسطينية وهي تحمل أطفالها من مكان لمكان بحثا عن الأمان وعن لقمة عيش تسدّ بها رمق جوع أطفالها، تذوَّقتْ مرارةَ الفقدِ، حتَّى فقدت نُورَ بصرهَا، تَصمتُ حينًا من الزَّمن حتَّى يُخيَّل إليَّ أنَّهَا

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لن تعطيني شيئًا ثمَّ تستعيدُ جوهرة شبابها عبر ذكريات ثورتنَا...فهيَ التي انتظرَت أوبةَ أبنائِهَا وطَرَقَتْ الأبواب لعلَّهَا تجدُ جوابًا، طرقت حتَّى كَلَّ مَتنُهَا من الانتظار فهي لا تنتظر جديدا بل اللحاق بهم، فشوقُ الأمّ لا يعادله شوق في الكون ولا شوق العشاق في ذروة عشقهم.

***

لم أكن أعلمُ أنّي سأحملُ في بطنِي ثُوَّارًا، كُلَّمَا حملت بِواحدٍ أخبر صديقاتي بما يفعلُهُ في بطنِي، كأنَّهُ مُحاربٌ صغيرٌ، يهتزُّ كأنَّه جانّ وما هو بذلك، ويركلُّ برجليهِ، كانت هذه العلامات الصَّغيرة تدلُّ على أنّه سيكون طفلاً مُشاغبًا، لكنَّهُ لمّا كبُر قليلاً لم يكن يلعبُ لعبةً غير لعبة الجندي المُحارب، يحملُ البُندقيَّات والمسدَّسَات الصَّغيرة التي يخرجُ منها الماء، لم يكن يدري أنَّهُ سيحمِلها حقيقةً ويُخرجُ منها بدل الماء الرَّصاص، ولكن ماذا تساوي لعبة ابني أمام لعبة الأطفال الفلسطينيين، إنّهم يلعبون لعبة الشّهيد!

-أتعرفُ لعبة الشّهيد؟

الشّهيد الحيّ الذي يدرّب نفسه على الشّهادة منذ الصّغر، وأنا أتابع شريط الفيديو لأطفال من غزّة يلعبون، يحملون على أكتافهم لوحة خشبية عليها طفل مغطّى بالعلم الفلسطيني وهم يردّدون: "لا إله إلا الله محمّد رسول الله"

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

لم أستوعب الأمر للوهلة الأولى، ثمّ أعدت الشريط مرّة أخرى، فأدركت المرأة الفلسطينية تنجب الأبطال، فتحيّة لكلِّ امرأة فلسطينيّة أنجبت بطلا، هؤلاء الأطفال يلعبون لعبة الشُّهداء، يعرفون ماذا ينتظرهم وأعمارهم لم تتجاوز السّابعة، وبعض النّاس تجده تجاوز السبعين ولا يعرفُ إتقان الشّهادة.

الحمد لله الذي اصطفى واختار ...

كان أبنائي"صلاح" و"مصعب"و"عمر" و"محمّد" لا يعرفونَ من الحبِّ غير حبِّ الأرض، ولطالمَا كان أوسطُهم "محمّد" شُجاعًا مِقدامَا، يجمعُ الأطفالَ الصِّغار ويجعلُ نفسهُ قائدًا عليهم، وأنا أبصرهُ من بعيد وأبتسم، لم أكن أظنُّ أنَّ عزيزي يُكوِّنُ نفسَهُ ويدرِّبهَا على قيادةِ المُجاهدين، فبعضُ الأطفالِ تظهرُ عليهم علامات النُّبوغ والتميّز عن باقي أترابهم منذ نعومة أظافرهم، كأنَّهَا رسائل لا يتقن قراءتها إلاَّ من أوتيَ الحكمةَ، كنت أراقبُ أبنائي بشغفٍ وكثيرا ما كنت أبصر النّسوة وهنَّ يضربنَ أولادهنَّ ويقلنَ لهم: لماذا لستم مثل أبناءِ الخنساء؟

كُنتُ ألمحُ في أبنائي الشَّجاعة والإقدام، وحُبَّ الأرض منذ الصِّغر، شبُّوا على حُبِّها حُبّا جمًّا، تأخذ منهم الرُّوح ولا تأخذ منهم الأرض، استشهدوا الواحد تلو الآخر.

الكيان الغريب يتغذّى من الصّمت، يبسط رداؤه بسرعة رهيبة، قَصُّوا ذيله، ولكنّه لا يزال يكذبُ أنّه يريد السّلام، فقصّته أشبه

بقصّة الثّعلب الذي قبضت المصيدة على ذيله فقُطع، رآه ثعلب آخر فسأله:

لم قطعت ذيلك؟

قال له إنّي أشعر وكأنِّي طائر في الهواء يا لها من متعة !

فجعله يقطع ذيله

فلما شعر بألم شديد ولم يجد متعة مثله

سأله: لماذا كذبت عليّ ؟

قال: إن أخبرت الثعالب بألمكَ لن يقطعوا ذيولهم، بل سوف يسخرون منك.

أخبرهم بما أخبرتك....

فظلوا يخبرون كلّ من يسألهم بمتعتهم وهم بدون ذيلٍ حتى أصبح غالبية الثعالب دون ذيلٍ، وكلما رأوا ثعلبا بذيل سخروا منه حتّى يقطع ذيله...

(يتدخّل هنا **جوزيف** ليعيد **بابلو** إلى وعيه فهو لا يزال يسرد قصص الرسائل التي جمعها من داخل المعرض وقد يشكّل انفعاله خطرا على صحّته)

جوزيف

هيّا يا **بابلو** نذهب لقد تعبت اليوم كثيرا.

كيف تطلبُ منّي والمعرض يعجُّ بالنّاس، دعني أكمل لقد وصلت لرسائل الأحد عشر سجينا وتريدني أن أتوقّف... لقد أخذوا منّي موثقا أن أبلّغ رسالتهم في المعرض، لن أتوقّف وإن هلكت اليوم....

الفصل السّادس

رسالة الأحدَ عشرَ أَسِيرًا بعدسة الصّحفي بابلو

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

1-سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بنصر ربّنا ولو بعد حين....

2- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بفرج ربّنا القريب...

3- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بتأييد ربّنا.....

4- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بجزاء ربّنا لنا فنحن صابرون على كلّ شيء...

5- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بثوابه فكم من امرأة أصبح فؤادها فارغا من ابنها كفؤاد أمّ موسى؟

6- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا بقضاء وقدر ربّنا ....

7- سأُخْبِرُ اللهَ أنَّنا آمنّا أنّ الله معنا فهو مع الصابرين....

الرسالة التّاسعة لأحد عشر سجينا

زيارتي لأحد السّجون التي وضعها الاحتلال الصّهيوني

دخلت السجنّ بوثيقة رسميّة، قدّمتها للإدارة، وعرفت بنفسي:

"أنَا الصّحفي بابلو الذي فقد عقله ويقبع الآن في مستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"

فسمحُوا لي بالدّخول لمقابلة بعض المساجين وقت الاستراحة، لاحظت مجموعة مكوّنة من أحد عشر سجينا كلّهم شباب في مقتبل العمر، لكن يبدو لي من ملامحهم أنّ السجن قد أنهك قواهم، فاقتربت منهم، ألقيت عليهم تحيّة السّلام.:

-السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فردّوا عليَّ:

-وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته

-هل تسمحون لي بطرح بعض الأسئلة؟ فسألني أحدهم:

-من أنت؟ فقلتُ:

"أنَا الصّحفي بابلو الذي فقد عقله ويقبع الآن في مستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"

ضحك الجميع،كيف لعاقل مثلك أن يصف نفسه بالجنون؟

لا يهمّ هذا الأمر الآن، أنا صحفي وتعرفون مهمّة الصّحفي نقل الواقع بالصّوت والصورة.

لو سمحتم أريد كلّ واحد منهم أن يروي قصّة معاناته، فالعالم خارجا لا يعلم عنكم شيئا، رسالتي لهذا العالم هي السّلام، لستُ

هنا من أجل المال ولا الشّهرة، بل نداء الإنسانيّة هو من فرض عليّ أن أكون بينكم.

سكت حينها الكلام عن الكلام، ثمّ نطق أحدهم:

دَاخِلَ غُرفةٍ مُظلمةٍ نَرْوِي تفاصِيلَ ظُلمٍ وقهرٍ واغتصَابِ لأرضنَا؛ يكتبُ أحد عشر أَسِيرًا قدرهُم والشَّمس والقَمَر يَرقُبُونَهم من بَعيد، ينيرون ظُلمةَ غُرفهم، فلطالما كان القمر يدعو من بعيد لعودة أبنائهِ، وهم يرقبون شمسَهُم التي تُخرج نور الحرية من قلوبهم، ينتظرُون بمدادِ صَبرهم، يؤمنُونَ بقضيّتهم، يروون قصص دخولهم السّجن، يختلفون في حيثياتها، ولكنّهم يتّفقون ويلتفُّون حول مائدةِ قُدسِهم التي تنبض في قلوبهم، ينتظرونَ أمل شمسِهم لتُشرقَ حُريَّةً، وهم على ذلكَ الحَال لا أحد يتحدّثُ عنهم كأنّهم أصحاب الكهفِ، نسيَهُم العالم، إلى أن حدث أمرٌ غريبٌ لأوّل مرَّة في تاريخ البشريَّةِ! قلبَ كلّ الموازين في العالم، حدث مع السَّجين ياسر رقم: 11 الذي أخذَ يروي تفاصيل رؤيا وهو يقول لصَحبِهِ: لعلّهَا رؤيَا سبع بقراتٍ سِمان يأكلهنَّ سبعٌ عِجاف، والأسيرُ الذي تأكلُ الطّير من رأسهِ....

فقالوا: ومن يوسفنا يا أيّها الأسيرُ؟

قال: يوسفكم الذي قال: (السّجنُ أحبُّ إليَّ ممّا يدعونني إليهِ)

فقلتُم جميعكُم: السِّجنُ أحبُّ إلينا من خيانةِ الوطن وإرضاء العدوّ.

الأسير رقم 01

وهلْ نحنُ أحدَ عشر أسيرًا فقط في هذه الزنزانة؟

-الأسير رقم 11

وهل تظنُّ أنَّ أحد عشر أسيرًا هي ممَّا نعدُّ اليوم؟

-يا صاحبيْ السّجن؛ بل قلْ الرَّقم الذي يتكاثر منذ 1946 من 11 أسيرًا إلى 11 ألف إلى 11 مليون.

-الكلُّ يرى تكاثر وتزايد الرّقم 11 إلاّ العالم من حولنَا.

الصَّحفي **بابلو**

ألا يملكُ العالمَ عيونًا؟

الأسير رقم 11

بل يملكُ إعلامًا بعيون عمياء وسِيقان عرجاء، تقفُ سِيقان كاميراتهم الثّلاثيّة الأبعاد، وما لها من أبعادٍ؟

فهي لا تستطيعُ اقتحام جدران زنزانتي ولا رؤية تعذيبي، هم يسجِّلون الأساليب الخاصّة فقط، فقد قالت: محكمة الكيان الصُّهيوني قرار يحظر استخدام العنف العسكري، يعني: قتل الأسرى بالقانون، ولكن: كيف هو هذا القانون؟

الأسير رقم 01

ستنكسِرُ عدسات كَاميراتهِم إذا رأت العزل الانفرادي الذي أعيشُ فيه منذ 1967، زنزانة مُظلمة، بالكاد أتنفّس، أتعرض للضرب المبرح لكي أعترف، توالت الأيام وأنا على ذلك الحال اشتدَّ بي المرضُ من شدّة التّعذيبِ والقهْرِ حتّى أخبروني

بزيارة امرأة كبيرة في السنّ ترتدِي حجابًا أبيضًا، ذهبتُ إليها وجدتها تنتظر بلهفة، لم أتعرّف إليها حقيقةً، فبادرتني بالسّؤال:
كيف حالك يا ولدي؟
فقلت: الحمد لله يا حاجّة.
نظر إليّ بقية الأسرى وقد رأيت الحسرة في عيونهم، وقد انهمرت الدموع من مقلتيها، فقلت لها:
يا حاجَّة: لا تحزني إنّ الله معنا، وقلت لها: بلّغي قبلاتي الحارّة لأمِّي.
فقالت: وصَلتْ في حينها يا ولدي، نظر إليّ الأسرى وقالوا جمعًا يا أسير إنّها....
فأشارت بيدها لهم فسقط المنديل من يدها، وما إن رأيته حتّى تذكّرت أنّه هدية عيدي ميلادي، حروف طرزتها أمّي بيدها، استدارت والدّموع تنهمرُ من عينيها والعبرة تكادُ تخنقُها، حتّى نطق لساني: أمّي، أمّي، أمّي...
-هل يدركُ الإعلام والعالم هذا يا **بابلو**، أنّ تعذيبهم جعلني أعاني من اضطرابات عقلية حتّى أكاد أنسى أمّي لولا رحمةُ الله!

الأسير رقم 02

وهل يدركُ العالم أنَّني كنتُ أصغر سجينٍ هُنا، دخلتُ وعمري شهرين، لازلتُ في بطن أمّي أسمع حواراتهم، وصراخهم، عذّبوا أمِّي نفسيًّا، ربطُوا رجليها ووضعوا عصابة على

عينيها، فانتفضتُ داخل رحمها، أتحرّك بقوّة وأمّي تتألّم، طنًّا منّي أنّني أردُّ عليهم، لا أكل صحّي لأمّي، كانت تجوع وكنتُ أجوعُ معهَا، كادوا أن يعتدوا على أمّي بالضّرب، كنتُ أختنق لا هواء تستنشقهُ أمِّي، فتساءلتُ حينها:

أين حقوق الإنسان؟

أين حماية الطُّفولة؟

وأنا مع هذا السُّؤال إلى أن جاء أمّي المخاض ومغصُ الولادة، ولدتُ في زنزانة، أمّي تنظرُ إليّ لم يتركوها تضمني لصدرها، بل جذبوني جذبًا قويًّا، كيف أنسى تلك الصّورة التي كانت عليها أمّي وهي تلدُ، مكبَّلة الرّجلين واليدين، أين هي حريّة المرأة التي تنادون بها في العالم؟

ها أنا أعود للسّجنِ مرّة ثانيّة مع 11 أسيرًا لنصنعَ حدثًا وسيُولد النّصر لفلسطين معنَا، أليسَ اللهُ معنَا؟ أليسَ اللهُ بأحكمِ الحاكمينَ؟

الأسير رقم 03

الإغراق بالماء

الأسير رقم 04

وأنا من الأسير الذي دخل مع الجماعة التي صُعقت بالكهرباء، يوم دخلتُ أبصرَتُ مجمُوعة من الفدائيين مُكَّبلي الأرجل، تسمعُ صوتَ السَّلاسل يجرُّ معهُ التُّراب، مَلابسهم مُقطَّعة بالية، تظهرُ عليهَا ألوان ما بينَ الحُمرةِ والشَّفقِ الذي يُعلِنُ عن مَغيبِ

شمسِهم لتسْطَعَ شمس أخرى، أبوا إلاَّ أن يرسموهَا بدمائِهم، ترى عليهم أثرَ التَّعذيب واشمًا خُطَاهُ نحو الصُّعودِ، عُذِّبوا، تجرَّعوا كؤوسَ العلقم، لا لشيءٍ إلاَّ لأنَّهم حفِظُوا العهدَ وردَّدوا أنشودةِ "تحيا فلسطين أبيّة"، ولم يعترفُوا بمكانِ إخوانهم، نصفهُم الآخر جردُّوهُ من ملابسِهِ ما عدا الدَّاخليّة منها، لكنَّهم لم يجرِّدوهم من عهدهِم ووفائِهم لهذا الوطن، فمحلُّهما القلبُ والفؤادُ، والبعض الآخر ما تزال ملابسهُ تُقاوِم معنَا شبح الاحتلال الصهيوني في متاحفهم وفي ظلِّ تجاعيدِ التَّاريخِ.

لا يزال يُسمعُ أنين الشُهداء في تلك الزنزانة، مَكَانٌ لو زرتَهُ لشعرتَ برهبة، تُناجِي من رفع السَّماء بلا عمد، تسقطُ دونَ أن تشعرَ، تذرفُ دموعًا لتتوبَ إذا قصَّرتَ في حفظِ الأمانة، فالمكان مخيف، تسْتشْعِرُهُ وهو يتكلَّم بمَنْطقِهِ تَسألُهُ: كيف أمكنك؟ حتَّى وإن أضحَى المكانُ دارسًا، فإنَّ رؤيتَهُ تعيدُ للتَّاريخ صفحةً من أبشعِ الصَّفحات، المكان الذي أصبح متحفًا نزورُهُ لا من أجل أخذِ صورة تذكارية معه، فحتَّى آلة التَّصوير تتنكّرُ لك وتتصدَّعُ أغشيتُها، لا لشيءٍ إلاَّ أنَّهَا تأبى التذكُّر، فالتَّاريخُ لا يزالُ يشهد ما فعلهُ الاحتلال الصهيوني بأجدادنَا.

بعدها بلحظاتٍ...أحضروا الرجال ورموهم أرضًا، وأجلَسُوهُم على سِيقانهِم، لمْ يدرِ الاحتلال أنَّهَا جَلسَةُ التَّشهُّدِ الأخير، فلاَ يأتِي التَّشهُّد إلاَّ بعد التَّمامِ وهُم إلى مسكِ الختام أقربُ، والسَّلاسل تنْخَرُ لحْمَهُم، صَوْتهَا تسابيح لهم يعدُّونهَا، يَتَمَلْمَلُونَ

فقد وَضَعُوا لهم الأيدِي خلفَ الظَّهر، والسَّبابة من وراءِ الحجاب تتشهَّدُ، يتمايلُ المُجاهدونَ كأنَّهم يسمعون أنشودة «تحيا فلسطين» يذهبُونَ يمينًا وشمالا، فصعقات الكهرباء تزلزلُ أجسادهم المنهكة.

-تبًّا لكِ أيَّتُها السَّلاسل!

تعْبثِين بأرجلٍ وسيقانٍ لو وُزنت بجبلٍ من جيش الاحتلال الغاشم لرجحَت كفَّة جيشكِ، أولم تكن سيقَانُ الصَّحابي الجليل "عبد الله بن مسعود" على دقَّتِهَا أثقل من جبل أحدٍ؟

هكذا هو الاحتلالُ

كأنّهُ يلعبُ لعبةً قذرة كان له فيها الحظّ الأوفر، فالأمور لا تُعْرَفُ ببداياتهَا، بل بنهايتهَا تُدرَكُ...

استشهد الرّفقاء، فأحضروني هنا معكم.

الأسير رقم 05

جاءت أمّي لزيارتي وسطَ الزنزانة المخيفة بألوانِ الدِّماء والرائحة الكريهة المنبعثة منها، نظرت إلي والدُّموع جرت أودية من مقلتيهَا، فللأمِّ حاسَّة ليست لكلِّ البشر، انتفضَ قلبُهَا وتسارعتْ ضَرباتهُ، كاد بنبضاتهِ السَّريعة أن يسبقَ رجليهَا إليّ، إنّه الشّوقُ يا سادة ! لمَّا نظرت إلي شعرت بشيء ما يصعد من رجليها لم تعرف مسٌ جني أم حُرقة أمٍّ، كانت أمّي قد تثاقلَتْ قدميهَا عن الحركةِ، وكادت تسقط، وما إن سمعت صوتي: أمّاه، أمّاه، أمّاهُ، حتَّى عادت إليها الرُّوح لتواصلَ

المشي وتصل إلى فلذة كبدِها، أرادت عناقي، فرفض الحديد تلبيةَ طلبهَا، شباك يمنعها، فمسكت يداي وشمت رائحتهُما وبكَتْ ، فأدركت نفحات من السَّماء تقترب إلي....

نظرت إلى وجهي، وإذا بهِ قد انسلخَ جلد جبهتي وبقيت عراءً تكشف بشاعة الاحتلال، لونهُ بين الأحمر والأزرق، كدمات على الوجهِ، فازداد ألمهَا أضعافًا مضاعفةً تشتَّتتْ عواطفهَا، لم تتمالك نفسها، ثمَّ استجمعت قواها من أجلي وقالت: ما بك يا بنيْ؟

الأسير رقم 05

لقد سقطتُ أثناء التدريب مع أصحابي.

-أيّ تدريب هذا يا بني؟

- أتتدربون على وجوهكم؟

أمَّاه لا تقلقي عليّ، كُنت أتدرَّب مع إخواني الذين معي في السِّجن، فتزحلقت قدمي، حتّى وجدت نفسي سقطتُ على الصَّحن السَّاخن للأكل، فحدث لي هذا.

-تُعاوِدُ النَّظر إلي وأنا في حالة يرثى لها، ترى علي أثر التّعذيب القاسي باديًا علي وعلى ملامحي!

تتأثَّرُ لحالي، تبكي وهي تسألني:

-أصدقني القول يا "بني" ما بها جبهتك منسلخة وتسيل بالدَّم هكذا؟ تمدُّ يدها لتلمسني براحتيها لعلّي أشفى، أهدِئ من روعها

وأبتسم، لقد سقطتُ يا أمّي ؛كنت أتبارز أنا وصديقي فسقطتُ على جبهتي.

إنَّه الابن البَّار يخاف على شعورها فيكذب كذبتهُ الأولى، فتدرك تلعثم ابنها، لا تصدّقه لأنَّ أثر التَّعذيب أكبر دليل على شراسَةِ الاحتلال، تسلَل الحُزن إلى قلبها، وسبقتها عبراتها، فلم تستطع لا الكلام ولا الصُّراخ، صوتها يذهبُ ويجيء وهي تبكي مثل الطِّفل الصَّغير، تتلألأ صورتي في مقلتيها والدُّموع تنزلُ من عينيهَا، فتراني قمرًا فأدركت حينها أنَّها تودِّعني، كيف تودِّعني وقد عاداها حتّى الحديد، لا تستطيع أن تصل إليَّ وأن تضمَّني إليها ضمَّة أخيرة تبردُ بها نار الشَّوق.

يا عالم؛ إنَّه قلب الأمِّ ينزفُ دمًا...فلاَ يشعُرُ بالأمِّ إلاَّ الأمّ ولا بالأبِ إلاَّ الأب....

تدرك الأمُّ بفراستها ما وراء هذا، وتتوقَّف عن السُّؤال حتّى لا تزيد من عذابي، تذهب إلى الجندي تطلب منه إطلاق سراحي، وتقول له: هو لم يفعل شيئا، سوى أنَّه عاشق من النَّوع الأوَّل لأرضهِ، ينطقُ هنا الجندي الإسرائيلي: أتعرفين ما هو ذنبك؟ لقد أرضعته حبُّ فلسطين، أحبّ الوطن؟

- هيا ساعدينا وأقنعيه أن يخبرنا عن الفدائيين، وخذيه معك.

تستبشِرُ الأمُّ حُزنًا، وتقبلُ على ابنها إقبال المودّع، تضمّه وتضمُّ الحديد معهُ لأنَّهاَ تعرف أنَّ الخيانة ليست من شيمة أصلها ولا أصل أبنائها، وتقول:

اثبُت كما ثبت الجبل تحت أقدام الصَّحابة، تعانقُ ابنها للمرَّة الأولى معانقة الوداع الأخير...
كانت ليلتها بيضاء، تفكِّر كيف السَّبيل لنجاة ابنهَا حتَّى تنفَّس الصُّبح؟

الأسير رقم 06

وأنا الأسير المعروف بإضرابي عن الطّعام، كيف يمكنني الأكل والشرب وهم يحضرون أكلاً غير صحيًّا، كيف يمكنني الأكل والشرب وقد اغتصبوا قطعة أرضي لتوسعتهم، كيف يمكنني؟

الأسير رقم 07

وأنا الأسير الذي تَفتَحُ الصَّفحة السَّوداء فمَهَا في وجهه، حينمَا نسيَ الاحتلال أنَّهُ يلوكُ العارَ بينَ فكَّيهِ، باع نفسَهُ قبل أن يبيعَ الإنسانيّة، باعَهُ بثمنٍ بخس دراهم معدودة، بِئس البيعُ وبئس الشِّراء! نسيَ أنَّ الوطن أغلى من أن يبيعَ غُصنًا من أغصانِ شجر زيتونه، كانت بيني وبين الإخوان كلمة السرّ، وهذا سبب اعتقالي بينكم، بعدما كنتُ مع الأسرى في زنزانة أخرى، عذبونا جميعا لننطق بكلمة السرّ، لكنَّهَا لم تنطقْ هذهِ المرَّة بالشِّفاهِ، فحتَّى الشِّفاه نالتْ حظَّهَا من التَّعذيب، وإنَّمَا نقلتْ كلمة السرّ عبرَ العُيُون، أليسَتْ لغة العيون أصدق اللُّغَاتِ؟

الأسير رقم 08

تبًّا للاحتلال؛ قتلتنَا آلاف المرَّات يومَ عذَّبَنا ويوم قتل شهدَاءنا ويوم نتذكّرُ ذلك؟ فبعضُ التَّذكُّر لا يزال ينهشُ ذاكرتنا ويقتاتُ من صبرنَا، لكن؛ أيُّها الجنديّ الإسرائيلي، لم تكن تدري أنَّ الجُبَّ الذي رُميَ فيهِ "يوسف عليه السَّلام" لم يكن نهايةَ مطافهِ، بل كانَ بدايةَ حياةٍ أخرى اختارها المولى، هكذا كانت نظرة بقية المجاهدينَ الذين تشبَّعُوا من نبعِ دينهم وفيض إيمانهم، هؤلاء الرِّجال ممَّن اصطفاهم ربَّهُم ليكونُوا بجوارهِ.

الأسير رقم 09

وأنا الأسير التّاسع تجرّعت الألم يوم سحبوني أرضا من بين يدي أبي وأمام أعين أبناء حيّي في حين تعالَتْ ضحكَاتهم مع دخانِ سيجارتهم لتكتبَ على سمائنا بشكل الغيوم وتُسمِع بصوت الرَّعدِ: أنتم مثل هذا الدخان ستمرُّونَ ولن يبقَى لكُم أثر، ستكُونُ نشوة تعذيبكُم لنَا كنشوةِ تعاطِي هذه السِّيجارة ما إن تنتهِي حَتَّى تجِدُوا أنفسَكُم خارج حدودنَا، فزمنُ النَّشوةِ أقصر من زمنٍ بين لحظة الشَّهيق والزَّفير

الأسير رقم 10

عذَّبوني ضربًا وسبًّا وشتمًا، فما زادوني إلاَّ إصرارًا على الوفاءِ بالعهدِ، فعاهدت ألاَّ أخون، وما زادُوني إلاَّ يقينًا بالشَّهَادةِ، لم أخلفْ وعد المجاهدينَ أبدا ولن أفعل.

الأسير رقم 11

يا صاحبيْ السّجنْ أأربابٌ متفرّقون خير أمّ الله الواحد القاهر؟
نطقَ جميع الأسرى: الله الواحدُ القهَّار؟

الأسير رقم 11

وأنا المفوّضُ أمري إلى الله، فأبي شهيد وأمِّي شهيدة، وإخوتي شهداء، بقيت وحيدًا أصارع الاحتلال في منزل عراء بعدما انفجرت فيه قنابل الاحتلال، أنا الأسيرُ الذي سأسمعُ العالم صوتي، لن أضربَ عن الطَّعام، ولن أفشيّ سرًّا، ولن أخون بلديّ، ولكنِّي سأفعلُ أمرًا سأكتُبُ رسالتي بدمي على جدران زنزانتي مثلما كتب الشّاعر الجزائري مفدي زكريا نشيد السّلام الوطني الجزائري بدمهِ على جدران زنزانة الاستعمار الفرنسي، فأصبح نشيده يردّدُّ لومنا هذا، باسم السّلام الوطني، سأكتب مجدَ فلسطين، سأكتب ليسجّلَ التّاريخ: --أينَ هي حقوق الإنسان التي تنادون بها في محافلكم وفي مؤتمراتكم وينشرها الإعلام كما تنتشرُ النّار في الهشيمِ؟
-أين منظّمات اليونسيف التي تحمي الأطفال في العالم والأطفال هنا في سجون الاحتلال؟
-أين الذين ينادون بحريّة المرأة في العالم والمرأة هنا تهان؟
والآن دعوني أقصص لكم ما رأيتُ ليلة البارحة، إنّه حلم عجيب، لكنّهُ يحمل الفرج القريب لنا، ينطقُ الأسير رقم 06:
- شوّقتنا!

الأسيرُ رقم 04

أفزعتنا!

الأسير رقم 02

هيَّا أخبرنا بما حدث معكَ...

(يصمتُ الأسيرُ قليلا ويتنهَّدُ ليروي صمتَ العالم في عيون الإعلامِ...)

الأسير رقم 11

ليلةَ البارحة ولأوّل مرَّة! رأيت حُلمًا مفزعًا، وأنا أمشِي في الطّريق على مهلٍ منِّي؛ فإذا بالمَاضِي يجذبُنِي للخلفِ جذبًا، كأنّهُ يشدّني بأمراسٍ كتّان، أرفعُ رجلي لأتقدّمَ دونَ جدوى، شخصٌ ما يقدُّ قميصِي من دبرٍ ويرجعُني لهذه الغُرفةِ المُظلمة، لهذه الزنزانة لألتفَتَ وأرى خطيئة العالمِ الكبرى في عيون الأسرى منذ الاحتلال، أرى صمتهُ القاتل وبوصلة الحرب تشيرُ نحو مدينتي الشّامخة، نحو قدسِي الأبيَّة، شيءٌ ما يجذبني مرةً أخرى للوراء لتاريخ أجدادي...

واربَّاهُ! ما هذا؟ أصواتُ المدافع أسمعها كأنّهَا رعدٌ، السَّماء من حولي كلَّها مُفرقعات، تساءلت: أهي ليلة الميلاد؟

-كلاّ، فعقارب السّنة في أوسطها!

لم أكن أصدّق، أغمضتُ عيناه ثمّ فتحتهما ظنًّا مني أنّي أحلم، بدل أن أتقدَّم بخطواتي وجدتُ نفسي أتراجع إلى الخلفِ.

-فجأة توقَّفتُ؛ لأنّي لمحتُ طائرًا فوق رأسي يُحلِّق وقد تناثرت أجزاء من ريشهِ، التفتُّ يمينًا وشمالاً وإذا بالدِّمار يرسمُ خريطة الحزن على مدينتي، فمدينتي بوصلة التّاريخ وعبقه، كانت مدينتي مهبط العشّاق والجمال، أصبح العشّاق يخافون زيارتها بعدما كانوا يحطّون رحالهم فيها كلّما اشتاقوا لعبق التّاريخ...

-كيف ذلك؟

رفعتُ بصري أعلى وقد ادلهمَّت السّماء بدخان المدافع والقنابل، فأيقنتُ حينها أنّها الحربُ وأوزارها، فهي لا تبقي ولا تذر، أين المفرُّ؟ الأسرى ينادون، لا أحد يسمعهم، ولا إعلامَ يُوصل صوتهم، أمسيتُ أهربُ هُنَا وهناك من عدوٍّ غاشم، يسجننا قهرا، يُخرصُ أصواتنا الخارجة من الغاب، أنظر لمآذن بلادي وشموخها، أحاول الهرب من طلقاتهم صوب المجهول، وبينما كنت أختبئ وأنا أحاول الهرب من المجهول، سقطت قطرات دمٍ على وجهِي فلمستها بيدي اليُمنى، ثمَّ رفعتُ بصري وإذا بالطّائر الجريح المحلّق فوقي يمسك ألفَ السلام بمنقاره خوفا من سقوطها أرضًا فتسقط حمامة السّلام...

تعجّبتُ من الطّائر الجريح الذي كنَّا نراقبهُ يوميًّا عبر نافذة السّجن، يغنِّي أنشودة الحرية فوق لافتة مكتوب عليها: «بوصلة السَّلام»، فتساءلتُ:

كيف لطائرٍ جريحٍ يقطرُ دمهُ يمسك ألف السّلام أن تسقط وأنا أحاول الهرب خوفًا على نفسي من عدوٍّ لم أعرف له من قبلُ سميًّا، ولم أظنّ يوما أنّ مدينتي تحت المجهر..

-لم أكن أعتقد أنّ خريطة مدينتي تسيلُ لعاب الآخر، وفجأة مسح طائر على بصري فرأيت عيونًا مبثوثة في السّماء، مُنتشرةً في كلّ مكان من زوايا مدينتي، هرعتُ لأصدقائي سألتهم جميعًا هل ترون ما أرى، فقالوا: وماذا ترى ولا نرى؟

-العيون التي تراقبنا ألا ترونها؟ عيونٌ في كلّ مكان وبكلِّ الألوان، اقشعرَّ بدني من هذا المنظر، كيف لعيون أن تنتشر هكذا؟

-إنّه أمر غريب حقًّا؟ نعتني الجميع بالجُنون ! استيقظت وأنا أقول: الحرية للسُّجناء، الحرية للسُّجناء، الحرية للسُّجناء.

-آهٍ يا صديقي ياسر، يا من تحمل رقم: 11 دع حلمك يبحث عن يوسفه، ودعني أعود بذاكرتِي لمدينتي، دعني أسافر من هذه الغرفة المظلمة لذكريات طفولتنا....

فقط كنَّا نعيش في سلامٍ، نلعبُ أمام الدَّار لعبة الحجلة للبنات، كانت تلعبها أختي سناء مع بنات الجيران، وسناء الآن أسيرة، كُنّ يمشينَ على قدمٍ واحدة وقد رسمنَ ثمانية مُربَّعات على الأرض، وتقوم إحداهنّ بوضع الحجر على المربّع الأوَّل، وترفعُ اللاَّعبة رِجْلها وتمشي على الرّجل الأخرى لتدفع الحجر إلى المربَّع الموالي ثمّ تقفزُ إلى المربع الذي يليه إلى

أن تجتاز كلَّ المربّعات، ولو حدث أن توقّفت على خطٍّ من الخطوط التي تفصلُ المربّعات عن بعضها أو لامست رجلها المرتفعة الأرض، خسرت اللّعبة ويحقُّ للأخريات أن يحللن مكانها، فعلتها سناء ورغم أنّها اليوم أسيرة تعاني إلاَّ أنّها حرّرت الكثيرات من خوفهنَّ، فهل أصبحت لعبتنا تُشبه الحرب؟ فقد أصبح تعذيب الأسرى أشبه بالمربّعات، ينتقل من واحدٍ إلى آخر والعالم ينظرُ دون حراك، ينتقل الحجر من مربّع لمربّع آخر، ليبقى الأسيرُ في خبر كان، لكن...

هل سنمشي على رِجْلٍ واحدة لنحمي حدود مدينتنا ونحن داخل أسوار السّجن أم أنّ الحجر سيكون سلاحنا؟ ولعبة عالي التي كنت ألعبها معك يا صاحبي، يوم كنت ألاحق بقيَّة اللاَّعبين للإمساك بهم، وهم بدورهم يتفرَّقون في كلّ مكان كي لا أستطيع الإمساك بهم، وإذا اقتربتُ من أحدهم وحاولت الإمساك به، فعليه أن يقف على مكان مرتفع كصخرة أو حجر قائلاً "عالٍ" كي لا يخسر، ومن كان يقولها هو أنتَ يا "ماهر" حينها يكون قد أنقذ نفسه وتوجَّب على اللاّعب البحث عن غيره ممَّن لا يقفون على مناطق مرتفعة ليمسكهم، وإن نجح في إمساك أحدهم يكون فائزا ويحين دوره في الانضمام لبقية الفريق، فهل عليّ اليوم أن أمسك بالعدوّ لتعود مدينتي عالية وصلبة كصخرة هذه اللّعبة، وأنا أسير بين قضبان الجدار، لا أحد يعلم بحالي، فحتّى اسمي لم يعد يذكر، فأنا

الأسيرُ رقم: 11، فأيّ لعبة سأختار لتعود مدينتي لسابق عهدها وأسمع مناداة اسمي: ياسر؟
أظنّ أنَّ حدود مدينتي مُكهربة، لذلك عليَّ أن أختار لعبة الزّوايا، لعلّها الأنفع، فزوايا مدينتي أسلاكها مكهربة والعدو منتشر على حدودها، والعيون مبثوثة هنا وهناك...
-يا إلهي إنّه منظر مخيف!
-وأنا الأسيرُ رقم 10
نسيت اسمِي بماذا يبدأ، فأربعين سنة داخل السِّجن أنستني اسمي، لا أحد ينادي عليّ به، هل أصبحنا مجرَّد أرقام؟
-لا عليك يا صاحبي، فلست وحدك الرقم بل كلنا أرقام مسجّلة عندهم، فأنا الأسيرُ رقم 09
لا أريد تذكّر ذلك، بل أريد أن أتذكّر لعبة كنت ألعبها مع خمسة أطفال، من بينهم أنتم: الأَسيرُ رقم: 08 والأسير رقم: 07، والأسير رقم: 06، والأسير رقم: 05، والأسير رقم: 04، كلّ منَّا كان يختار زاوية ليقف عليها، ويبقى اللاّعب الخامس في السّاحة، ثمّ يقوم الخامس بإعطاء إشارة البدء للأطفال الذين عليهم أن يتبادلوا الأماكن مع بعضهم البعض بسرعةٍ، ومع تكرار التَّبادل إن تمكّن اللاَّعب الخامس من احتلال مكان أحدهم يخرج اللاّعب الذي لا مكان له من اللّعبة فيأخذ مكانه زميله الذي احتلّ مكانه، وبهذه الطريقة تستمر اللُّعبة، عليّ أن ألعب هذه اللعبة لنخرج العدوّ، فإذا كُنّا بالأمس

أطفالا، فاليوم سنكون أبطالاً من أجل مدينتنا ولو كنا أسرى، سنعيد بوصلة السَّلامِ؛ لكنّي أذكر وأنا الأسير رقم: 03 بالأمس لمّا كنّا نرسم على التّراب منازلاً وحدائقَ غنّاء، يوم مرَّ علينا بائع الحلوى والأزهار، فنادينا عليه:

يا حلواني؛ توقَّف نريد حلوى، فتوقّف عندنا ثمّ قال لنا: ما اسمكم؟

فقلنا جميعًا: ساهر وماهر وياسر، ثمّ سألنا:

-هل ستلعبون هذه اللّعبة غدا؟

فقلنا: هل تكبرُ الألعاب معنا؟

الحلواني: نعم؛

تكبر الألعاب وتصبحُ بنادقكم التي تخرج ماءً حقيقيّة، وبيوتكُم التي ترسمونهَا ستبكونهَا إذا لم تُحافظوا عليها...

الحلواني: الآن دعونا من هذا الكلام وأخبروني بكم تبيعون لي الدَّار التي ترسمونهَا؟

-قلنا جماعة بصوتٍ واحد: يا للعار نحن لا نبيعُ الدّار حتَّى ولو طلبت أشبارا منها!

أخذنا نردّدُ تلك الكلمات كأنّها أنشودة: يا للعار نحن لا نبيع الدّار ولو كانت أشبار...

فيبتسم البائع ويعطينا الحلوى مجانًا ثمّ يذهب البائع ليعود في المرّة القادمة ويعاودنا نفس السّؤال؟

في هذه اللحظة عدت لواقعي المرير، قمت بهزّ رأسي مرّة أخرى لعلي أحلم، وتساءلتُ: من باعَ الدّار؟
انظروا هناك ألعابُنا أراها مرمية على الأرض وقد تناثرت أجزاؤها، والطّائر لا يزال يحلِّق فوق رأسي، هل هو أوفى منِّي؟ هل سيأتي من سبإ بنبأ؟
أصبحت مدينتنا حزينة، نبكي أطلالها المُدمّرة، مرّ بنا بائع الحلوى بعد سنين مضت، فوجدني لوحدي اسكبُ دموعي، فمنزلنا لم يعد له باب ولا نوافذ، أصبح ركامًا أجلس عليهِ، فسألني :
من باع الدّار؟
قلت: لا أدري، أخبرني لعلّك تنقذني من هذا الدّمار....
فما عدا الفانوس يضيء الدّيار، اطفأوا شعلتهُ دون سابق إنذار، فقد فاز اللاَّعب الخامس وحلّ مكاننا، ولامست أختي رجلها المرتفعة الحُدود والسّبب هو هذه العيون اللّعينة التي أراها ولا يراها الجميع..
-أتركوني سأصابُ بالجنون، لم يبق غير ذلك الطّائر وفيًّا لا يزال يحملُ ألف السّلام بمنقاره فوق الصّخرة ويردّد بلغته: "عال" فلا يزال رمزا للسَّلام، وذلك الحلواني الذي يتجوّل بين أزّقة شوارعنا الضيّقة...
الحلواني: يا للعار!
قلتُ: نبِّئني من باع الدّار؟

الحلواني: أتدري يوم كنت ترسمُ على التُّراب أنت وصحبكَ حدود الدار وتلعبون لعبة الزّوايا ولعبة عالي؟
-نعم أذكر ذلك، كنّا نلعبها لنحميَ زوايا الدّار ونبقي شأننا عالي....
الحلواني: العيون !
- يومها كان العدوُّ يقرأ ما فيها من أسرار، فأنتَ يا ولدي كنت ترسمُ الحدود على الدَّار ونسيت البقية ممّن كنت تظنّهم أخيار؟
-فسألت الحلواني: وهل يخونُ الأخيار؟
-وكيف لا إذا قدمت له الحلوى وسألته عن الأسرار؟
-الأسرار؟
الحلواني: نعم الأسرار
الحلواني: الأسرار هي مفاتيح الدّيار يا ولدي...
الحلواني: أصبح الغرباء يشاركوننا الدّار وهم من يشي بالأسرار...
-آه؛ الآن فهمت لم يفت الأوان ما دمت أتنفّس سأنقذ مدينتي، لن أرتاح ولن يهدأ لي بال حتّى أجمع أصدقائي ونلعب لعبة الزَّوايا ونقف مرّة أخرى على الصَّخرة ونقول بصوتٍ عالٍ: مدينتي بوصلة السَّلام.
-وهل تستطيع ذلك الآن بعدما أصبح جزء منّا أسير والآخر نازح والباقي يناشد الحريّة؟

-لا مستحيل معنا أيّها الحلواني، ستمرُّ علينا غدا لتوزّع حلوى السّلام، فغدا لناظره قريب...
-كلامك فيه حزم، لكنّك وحدك لن تستطيع فعل شيء، فحزمة الحطب قويّة بتماسكها، ضعيفة بإنفرادها.
نطق الأسيرُ رقم: 01 وقال:
سألعب لعبة السّلام، وستلعب سناء والنِّساء لعبة الحجلة لتمرّر حجر الرِّسالة من امرأة لامرأة، ونلعبُ نحن الشّباب لعبة الزَّوايا، فلا أحد أقدرُ منّا ليحمي زوايا مدينتنا، ويلعب الأطفال لعبة عالي لأنّنا أمل الغد، سنصعد فوق الصّخرة ونقول بصوتٍ عالٍ: فلسطين بوصلة السّلام...
أنا الأسير رقم: 02 حدث معي أمر غريب أشبه برؤيا الأسير رقم 11
-إنّه أمر غريب حدث معكما في ليلة واحدة!
-عن أيِّ أمر تتحدّث يا صلاح الدّين، أيّها الأسير رقم 02، عن أيّ أمر، فقد أصبحت أيّامنا داخل السّجن مثل لياليا، لم نعد نخشَ شيئًا، فنحنُ أبناء الحجارةِ نولدُ كالفينيق، نولد من بين الرّكام، وصوتنا بات أشبه بصوت جذع شجرة الزّيتون لا يسمع أنينهُ إلاَّ الله.
أين أنت يا محمّد يا رسول الله؟ فأنت وحدك من كان يسمع جذع النّخل!
فالكلُّ أصبح صمًّا بكمًا! حتّى إعلامكم مزيّف.

-كلاَّ؛ فهذه المرَّة تفرّدت عن سابقاتها، سيُبصر من له قلب ويسمع من له آذان، آذان النّصر، فقد لا تنسوا موعدنا وحتّى نحن أسرى، فلا هو بيوم الزّينة ولا يوم من أيّام القيامة:
انتظروا نشرة الثَّامنة لتدخلُوا معنا الجنَّة من أبوابها الثّمانيَّة، فعلامات السّاعة في معصمكم تدنُوا وأنتم لا تشعرون.
-من أنتم يا صلاح الدّين؟
أمثلك يسألُ هذا السُّؤال يا صاحبي؟
-نحنُ الشَّعب الوحيد الذي جدّهُ شهيدٌ وأبوه شهيد وابنه شهيد وحفيدهُ شهيدٌ، والجنينُ في بطن أمِّه شهيد، وأمّه شهيدة، وأختهُ شهيدة وخالته شهيدة وعمّته شهيدة، فنحن من وقَّع عقدا مع الشّهادة.
-الآن عرفتكُم، ومن بالعالم لا يعرفكم، فشجرة تاريخكم أصبحت من أقدم وأعرق الأشجار في العالم، ولو تتبّعنا جذور شجرة زيتونكم لوجدناها امتدت جذورها كلّ أصقاع العالم؟ !
-كلّ شهيد منكم سيشفعُ لسبعين من أهله، ستملأ الجنَّة بكم وبأمثالكم يا صلاح، هل سنجدُ مكاننا بينكم؟
صلاح
وهل حفظتم معنا أمانة الأنبياء وعهد الصّالحين الأوفياء؟
فنحن في مكان أعلن فيه التّوحيد وصلّى فيه الأنبياء مجتمعين وأنتم تعلمون ذلك، ولكن بيننا وبينكم ميثاق قضيّة وطن، فمن

يوقّع معنا منكم هذا الميثاق؟ سيعلن عنه هذا المساء لمّا تشير عقارب السّاعة إلى الثامنة تمامًا قبالة المسجد الأقصى.

الأسير رقم 03

شوّقتني لما تلفَّظتَ به يا صلاح !

ينطق الأسير رقم 01

أفزعتني! وأنا أستمع لك أخاف أن أخرّ صعقًا ممّا سأرى !

-بالله عليك قصّ علينا رؤياك، ولا تزد على جراحنا جراحًا أخرى...

بالأمس؛ بينما كنتم أنتم عبر شاشاتكم شهود، كنتُ في اشتباك مع اليهود وأنا أحملُ حجارتي التي لا هي من سجّيل ولا من الحجر الأسود، بل من قلب يحملُ قضية وطن، فكلُّ الأوطان تحملُ شعوبها ونحن نحمل فلسطين في قلوبنا، أو لعلّي أحمل الحجارة الذي قتلت جالوت، فإذا بي أسمع صوتًا عجيبًا، لم أسمعهُ من قبل أبدا، بعدما رَكَنْتُ إلى جذع شجرة الزَّيتون لأستريح قليلاً من الأحرف التي كانت مجتمعة ذات صباح ثمّ تفرّقت وغفت ذات مساء:

"العينُ والرَّاءُ والباء" والأحرف التي كانت مشتّتة ومتفرّقة في أصقاع العالم جمعت ها هنا في مدينتي، حينها سمعتُ صوتًا عُجابا من الحجر:

"لن ترضى عنكَ اليهود، فلا تصمت، لن ترضى عنك اليهود، فلا تطبّع، لن ترضى عنك اليهود، فلا تأتمن"

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

التفتُ يمينًا وشمالاً ويدي اليمنى ترتجف فلم أجد أحدا، وإذا بالصّوت يتردّدُ فوق الجبال، يشقُّ الأرض، ليهتزّ جذع شجرة الزَّيتون لهُ ولصوت الثّكالى وهي تنادي:

"وا ربّاه، وا قدساه"

وضعتُ رأسي على جذع شجرة الزَّيتون منهكًا متعبَا ممّن فرّق العين والرّاء والباء وجمع الياء والهاء والدّال، فسمعت أنينًا يبكي الحجر، من فرط دهشتي أغميَ عليَّ، انتقلتُ إلى عالم آخر ليس عالمكم بطبيعة الحال، أفقت على قطرة من طائر فوق غصن شجرة الزيتون، كأنّه يوقظني من غفلتي ويساندني في قضيَّتي بعدما تنكّر لها جلّ البشر، فرفعتُ مناجاة لله كما رفع ذلك الطّفل الصّغير شكواه بعبارته

"سأخبر الله بكلّ شيء"

-واربّاهُ؛ كيف لجذع أن يتألّم لما تعانيهِ فلسطين؟

يشعرُ بها حتّى أنّي أسمع أنينهُ والبشرية جمعاء تنظر ولا تشعرُ أم أقفلَ الله على قلوبها؟

هل ستخبرني شجرة الزيتون أنّ اليهودي يختبئ خلفها لأقتلهُ وبعض الآخر يخبؤه، ويْحَكُم، فالشّجرة لن تفرّق بينكم وبينه، ليس لها عقلُ بل لها إحساس، لها جهاز اختبار الصّدق من الخيانة...

-سألت جذع شجرة الزّيتون:

كم لبثوا ولم يشعروا بي؟

كم لبثت العين والرّاء والباء؟ فقالت في حسرة:
لبثوا بضع صمتٍ وخيانة ودهشةٍ ومساندة...
نظرتُ من حولي، فإذا بي أجد شجرة الزيتون امتدّت جذورها تحت الأرض أميالا وأميالا، تُخرج جذورها في كلّ مكان من أرضنا المباركة وتلتفُّ حول عنق كلّ يهودي، لا تتركه حتّى ينقطع نفسهُ، فتنفّستُ الصّعداء، وأنا على ذلك الحال أسأل وأسألُ:
-ما الذي يحدث؟
-هل هي معجزة؟
وإذا بالماضِي يجذبُنِي للخلف جذبًا، كأنّه يشدّني بأمراس، أرفعُ رجلي لأتقدّم دون جدوى، شخص ما يقدُّ قميصي من دبرٍ لألتفتَ وأرى خطيئة العالم الكبرى وبوصلة الحرب تشيرُ نحو مدينتي القدس، الكلّ اجتمع على القدس، ما بال القوم يأتمرون، ألم يستيقظوا من كهفهم الذي دام (115)، قرنا وخمسة عشر عامًا، فمنذ 1907 ونحن نعدّ الأيّام والسنين لنومهم، فلا هم في الكهف ولا في القبور هم فوق الأرض.
الأسير يستحضر المجازر اليوميّة التي رآها، وإذا بِصَوْتِهِ يَتغيَّرُ من حماسةٍ إلى صوت خنقتهُ عبرات التّذكُّر، أخذت الدُّموع تنهمرُ من عينيهِ حتَّى ابتلت لحيتهُ لتغسلَ ما أصابهُ من حزنٍ، حينَ تذكَّر استشهاد أهله كلّهم، فعائلتهُ ثوريَّة من الألفِ إلى الياء، وقال:

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

-لو تعرف ماذا فعل بنا العدو هذا اليوم وقبل هذا العام منذ 1947؟

لجحظت عيونك واقشعرَّتْ بدنك ولعاهدت نفسك أن تنقلك أخبارك بكلّ مصداقيّة للعالم بأكمله.

-هَوِّن عليكَ يا صاحبي وأخبرنَا ماذا فعل وهل فعل أكثر ممَّا يفعلهُ الآن؟!

آه؛ يا **بابلو**...

أذكر مرَّة كنَّا نحصد أرضنَا فرحين بما آتانا الله حتَّى أقبل علينَا الجنود الصهاينة وقد تقدمهم جندي حقير، وخيَّروا الفلاحين بين أخذ الغلّة عنوة أو إبادة القرية بكاملها، بنسائها وأطفالها، فسلمنا أمرنا لله، وسلمنا الغلّة، فانصرفوا بعد أخذها، أخذوا الغلة ولكن تبقى الأرض لنا وفيّة.

-أَكُلُّ هذا الحبِّ للوطن؟

-إنَّها الأمُّ إنَّهَا الحضنُ الأوَّل والأخير لنَا، وليس لنا وطنٌ نعرفه ويعرفنا غيرها، سل المغترب عن الأمِّ، عن الوطن وانظر بماذا ينبئك! يوصي وصيَّتهُ قبل وفاته: "لو توفيت أرجعوني إلى بلادي لعلّي أرى وجهها الأخير"

الوجه الأخير

رفعتُ رأسي للسّماء وقلت:

واربَّاهُ! أين أحفاد صلاح؟ أين العين والرَّاء والباء؟ فقد تعبت أحبالي الصّوتية وأنا أنادي عليها مُجتمعةً:

- يا ربِّ أصوات المدافع أسمعها كأنّهَا رعدٌ، قذائفهم، قنابلهم تدوّي، ألا تسمعون؟ السّماء من حولي كلّها مُفرقعات، تساءلت:

ـأهي ليلة الميلاد عندهم؟ فردّت عليّ أمّي تركضُ من خلف جذع الشّجرة:

-كلاّ، اقترب يا صلاح، فالوعد قد اقترب، فعقارب السّاعة تُشرفُ إلى نهايتها...

ابشر يا صلاح

-ماذا يا أمّاه؟

كم لبثتُ هنا بجانب جذع الشّجرة؟ فقالت:

بضع صبرٍ وشهادة ويقين، ثمّ قالت مرّة ثانية: أقبل لنسمع نشرة الثّامنة، إخبارية عاجلة لم تسمعها من قبل، كلّنا ننتظرُها منذ سنين خلت، منذ صلاح الدّين والفاتحين...

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

أقبلنا جميعنا من كلّ أقطار العالم لنسمع أوّل نشرة إخبارية قادمة من السّماء:

مقدّمة البرنامج كأنّها من الحور العين، ترتدي بياضًا فضفاضًا، ما دريت لون السّلام أم لون الأكفان؟ ! عيوننا اشرأبت نحوها في دهشةٍ وذهول، ننتظر بشغف أن تعلن عن.....؟

اعتصمنا بحبل ربّنا، وتماسكت أيدينا وربطنا على قلوبنا، وما هي إلاّ لحظات حتى نطقت الإعلاميَّة:

«السّلام عليكم ورحمة الله؛ نشرة إخباريَّة عاجلة:

من قناة العالم العربيّ: " وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ"، هلمُّوا والتمُّوا واجتمعوا لتسمعوا...

من قلب الحدث؛ الأمَّة الإسلاميَّة تكبّرُ في المسجد الأقصى:

"الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر"

هنيئًا لنا بهذا النّصر المحقَّق الذي دفع ثمنه الفلسطينيّون أكثر من ملايين الملايين من الشّهداء، ها هو العالم العربيّ اليوم يحتفل بتحرير فلسطين بوصلة السّلام والإسلام، مهد الأنبياء، مسرى الرّسول وأمانة الخلفاء، فبعد غفلة العين والراء والباء التي عاشوا فيها لسنين، بعد تطبيع بعضهم ومساندة بعضهم ترفع رايات العالم العربي عاليا، والعالم الغربيّ في دهشةٍ

وذهول تحسبهم سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله قريب، رفِعت الخطب من منابر مساجد المسلمين من جامع الأزهر بمصر والجامع الأعظم بالجزائر وجامع الزيتونة بتونس والمسجد الحرام بمكة المكرمة، والمسجد النبوي بالمدينة المنوّرة وجامع الإمام محمّد بن عبد الوهاب بقطر، وجامع الشعب الصّالح باليمن وجامع السّلطان قابوس الأكبر بسلطنة عمان وكل مساجد الدّول العرب.

رُفعت الخُطب من الرُّؤساء العرب بعدما تحرّروا من الطغيان، وفكّوا قيود الشّيطان، ها هي دول التحاف العربي الاثنين والعشرين تتحدّ، لبّى النّداء الجموع من كلّ العالم العربي، من البواب البسيط إلى الجنين في الرَّحم والرَّضيع في المهد والشَّاب في المعاهد والجامعات والفلاح في المزارع والطَّبيب في المستشفيات والمرأة في المنزل تحيك الأعلام إلى أعلى الهرم، هبُّوا ليلة من اللَّيالي التي ترفع فيها الأعمال، فأقاموا الإتحاد من نهج ربّهم تحت مسمّى:

مؤتمر النّصر العربي2030، هذا المؤتمر الذي كان مخدّرا بلقاح المستعمر والكيان الغريب ومؤتمر عام 1907، ومجمَّدا في ثلاجاتهم، تساءل الجمع المؤتمرون:

كيف حدث هذا؟

وقد وزّعنا في مؤتمرنا خرائط العالم العربي واجتمعنا على عدم الرّضا عنهم حتّى يتّبعوا ملّتنا...

فرّقناهم في دولهم جعلناهم قبائل منفصلة، قسَّمناهم لشمال وجنوب، جعلناهم يتقاتلون ويسبّون بعضهم البعض دون شعور منهم في مواقع الانفصال الاجتماعي، وأشعلنا بينهم نار الفتنة.
هنا توقّف عهدكم يا سيّدي، فزمنكم قد ولّى أيُّها المؤتمرون، واليوم عدنا لمهد حضارة الفاتحين، اليوم زمن العرب المسلمين، والكلمة لنا، فنحن رسل السّلام في العالم بأكمله، نحن بوصلة السّلام، من الأرض المباركة فلسطين سيشدُّ الرحال ويأتيها الحجيج من كلّ بقاع الأرض ليشهدوا مائتين وخمسين صلاة...
-ها هي الأمّة الإسلاميَّة تستيقظ من نومها وتستفيق من سباتها العميق.
-ها هي الأمّة الإسلاميّة اليوم تكبّر الله في الأقصى "الله أكبر" فتسمعها الإنسانيّة جمعاء، من الشّمال إلى الجنوب ومن الشّرق إلى الغرب، فيلبوا النِّداء للصَّلاة جماعة، ثمّ ينطلقون ليرهبوا عدوّ الله بعدما حرّروا فلسطين بضربةِ يدٍ واحدة، يهبّون لسوريا فيحرروها، وللعراق مهد العلم والعلماء يحرروها، وليبيا واليمن.....

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

ها هي الأمّة الإسلاميَّة اليوم واحدة موحَّدة، لا فوارق لا حدود،



لا جوازات سفر، بل تأشيرة مكتوب عليها: "
وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ"
تجمعهم لغة واحدة، ينادي الأخ من أقصى المغرب، فيسمعهُ من في الخليج، ويلبيه من في الجزيرة.
ها هو العالم الغربي يفقدُ سيطرتهُ، ينهار كليًّا، سيعود ليدرس في جامعات الدّول العربيّة ويأخذ من علمائهم، سيعود بحدود 2030....
لم أكن أصدّق، أغمضتُ عيناه ثمّ فتحتهما ظنًّا مني أنّي أحلم، ثمَّ رفعتُ بصري وإذا بالطّائر المحلّق فوقي يقطّعُ علم اليهود بمنقارهِ فأدركت النّصر القريب.
أدركت أنّها معجزة حقيقية لا تحدث إلا في الأرض المباركة، أرض الشّهداء، أرض الملائكة التي ارتقت إلى السّماء بندائها العجيب **"سأخبر الله بكلّ شيء"**
ينطقُ السُّجناء الأحد عشر:
سيكون النّصر حليفنا، فنحن شمعة تحترق داخل غرفة مظلمة ضيّقة لتنير طريقًا للشّمس والقمر خارجًا قدسنا.
أستسمحكم أصدقائي، سأنصرفُ لأكمل مهمّتي وستكون رسائلكم بالمعرض أعدكم سيخلِّدها التّاريخ....

(سجّل **بابلو** رسائل الأسرى الأحد عشر وانصرف ليكمل مهمّته...)

في اليومِ الموالي.....

دعوة لتغطية إعلامية في مؤتمر عالمي بتاريخ 2024

يجهّز **بابلو** أمتعته للسّفر، **يودّع** صديقيه **أنيس** و**جوزيف،** ويركض مسرعا خلف حلمهِ، ما إن يصعد الطّائرة حتّى يستعيد شريط رسائل ليليا، فهو لم يعد يفقه شيئا، يفتحها ويعيد القراءة لعلّه يستعيد حبّ حياته...

"ما إن يتسلّل النُّور إلى قلوبهم حتّى يغادروك ليبحثوا عن نور آخر .

مهمّتهم أقسى من المجرم، فالمجرم يقتلُ في لحظة غضب أو تحت تخدير أو تحت ضغط أمَّا هم يقتلوا إحساسك بالحياة تحت تأثير سعادتهم، تحت تأثير النّور الذي انبثق منك فاخترق أرواحهم المتعبة من الحياة، ذلك النّور يجعلهم يطيرون فرحًا، كأنّهم وُلدوا من جديد، استغلوا ذلك النّور الروحاني المنبثق من داخلك لصالحهم.....

استغلوا طيبتك...

استغلوا جسدك الملائكي ...

استغلوا براءتك...

استغلوا صفاء نيتك ونقاءها...

بصراحة استغلوا ما تبقى من طيبة في هذا العالم.

.....

.....ليليا

سأخبرك بأمر يا **بابلو**

"يدخلُ بعض الأشخاص لحياتكَ من أجل البحث عن سعادتهم الضّائعة، يرون فيكَ ذلك النّور المشتعل، المتوقّد الذي لا ينطفئ، لا يدركون سرّ ذلك، يتسلّلون إلى قلبك، يتقرّبون حبًّا، يبحثون عن سعادتهم فيكَ، ثمّ يغادرون بعدما سرقوا النّور المنعث منك"

(كانت ليليا تبعث رسائلها إلى بابلو كلّ مساء ولم تكن تعلم أنّه فقد ذاكرته، ظنّت أنّه هجرها عمدا، فقد كان يقرأ رسائلها

ببرودة أعصاب، لا يردّ ولا يعلقّ وهو المتعلّق بها قبل فقد ذاكرته، كان جوزيف يقرأ رسائلها بحسرة وألم وكان يتساءل:
كيف لهذا الحبّ ألا ينتصر؟
ليليا تكتب في زمن الحرب الحقيقية، حرب المشاعر، حرب العادات والتقاليد، الحرب مشتعلة و**ليليا** لا تزال تكتب رسائلها الخالدة **لبابلو** لعلّه يستجيب"
لمّا شعر بابلو بألم ليليا من خلال رسائلها كتب لها:
"سامحيني أرجوكِ"
فكتبت لهُ آخر رسالةٍ:
أتظن أنني سأنساك لو ابتعدتَ عنِّي وهجرتني....
سأنساك في حالتين لا ثالث لهما :
إذا فقدتُ ذاكرتي كليًّا حتّى إذا رأيتك لن أشعر بأيّ إحساس اتّجاهك!
أو إذا فارقتُ هذه الحياة، طيفك لا يفارقني ولو لحظة، طيلة هذه الأيام والشّهور التي ابتعدت فيها مجبرا لم يفارقني طيفك ليل نهار. فمثلك لا ينسى يا **بابلو**
يقال أنَّ الحبيب يشعرُ بحبيبه إذا أشتاق أو إذا تألَّم أو إذا ذرفت دموعه...
اشتقتُ وتألَّمت وذرفت دموعا ولم تشعر بي، أكلُّ هذا الشَّوق والألم ولم تشعر بي؟ !

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

شعر حينها بابلو بألمٍ شديد في رأسه، فأخرج علبة دواء الرّأس وأخذ قرصا واحدا ثمّ غفا على متن الطائرة حتّى وجد ذلك الطّفل صاحب اللقاء الأوّل يوقظه ويقول له: "هيّا استيقظ حان الوقت، حان الوقت"

استيقظ بابلو فزعًا وكالعادة وجد مضيفة الطيران عند رأسه، قالت له سيّدي نزل الركاب كلّهم، أنتَ الوحيد الذي نسي نفسه ...

-أين ذلك الطّفل، إنّه هو...

أيّ طفل؟

-آه تذكرته، أنتَ هو، فعلت نفس ما فعلته المرة الماضية، لا يوجد أطفال...

إنّه صاحب العبارة **"سأخبر الله بكلّ شيء"** ألا تعرفينه؟

-هل أنت بخير يا سيّدي؟

أنا بخير وسأكون بخير عندما تبتعدي قليلا وتتركينني أنزل من الطائرة.

نظرت إليه المضيفة نظرة استغراب وقالت لصديقتها وهي تلوي عنق الحديث:

"أظنّه مجنون"

فاستدار لها وقال لها بنبرة شديدة جعلتها تقفز من مكانها...

"نعم مجنون وفاقد لذاكرتي في حربٍ غير عادلة، نعم مجنون لأنّ الحرب التي في عقلي أنتِ لا علم لك بها، فلتذهبي لمسح مساحيقك لتري حقيقة هذا العالم"

انصرف بابلو إلى الفندق استراح ليوم كامل وهو يجهّز عدسات كاميراته ليلتقط كلّ شيء، وفي اليوم الموالي استيقظ باكرا وأسرع إلى قاعة المؤتمر، ولمّا همّ بالدّخول سأله الحارس:

من أنتَ؟ فردّ عليه:

"أنا الصَّحفي بابلو الذي فقد عقلهُ وهو الآن يقبعُ في مُستشفى العقلاء لأنّ المجانين خارجا"

-نعم، ماذا تقول؟

-أمزح فقط، إليكَ بطاقتي...

دخل **بابلو** قاعة المؤتمرات الدّوليّة ووقف خلف جندي سابق لا يزالُ في مقتبل العمر، لاحظ **بابلو** أنّه يشببه في أمر ما، يبدو غريبا مرتبكا، وهذا ما دفع **بابلو** ليكون قريبا منه.

بدأت الجلسات والشِّعارات إلى أن جاء دور الجندي الإسرائيلي الذي فاجأ الجميع بكلامه، قال ما لم يتوقّعه كلّ الحضور...

شاب إسرائيلي لا يتجاوز عمره 30 عاما يفضحُ الكيان الصّهيوني في إحدى هذا المؤتمر، يحلقُ نصف شعره ويتركُ شعرا طويلا على القفا كالذيل متدليًّا، يتحدّث بانفعالٍ شديد، تكاد عروق رقبته تنفجر وهي تنتفخ ثمّ تعود لسيرتها الأولى،

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

تخرجُ من كلتا عينيه شرارة الغضب وهو يلوّح يمينا ويسارا حتّى كأنّه يخيّل إليك أنّ ذراعه تضرب من على يمينه ويسارهِ، ثمّ يُمسك الكأس الزّجاجي الموجود فوق الطاولة ويرفعه ثمّ يضعه بقوّة، صديقهُ الذي بجانبهِ يضع يده على ظهره ويحاول أن يهدئ من روعه، لكن هيهات أن تهدأ ثورة الأطفال في عقلهِ التي أحدثت ثورة حقيقية وقد شهد شاهد من أهلهم، فقد أحدث بركانا من الأسئلة، إنّهم يزورونني بالمنام والحقيقة، أينما ولّيتُ وجهي أرى أطفال غزّة، يسألونني الواحد تلوى الآخر:

لماذا قتلتني؟

-الطّفل الأوّل: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الثّاني: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الثّلث: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الرّابع: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الخامس: لماذا قتلتني؟

-الطّفل السّادس: لماذا قتلتني؟

-الطّفل السّابع: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الثّامن: لماذا قتلتني؟

-الطّفل التّاسع: لماذا قتلتني؟

-الطّفل العاشر: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الحادي عشر: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الثاني عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثالث عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الرّابع عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الخامس عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّادس عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّابع عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثّامن عشر: الطّفل لماذا قتلتني؟
-الطّفل التّاسع عشر: لماذا قتلتني؟
-الطّفل العشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الواحد والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثاني والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثالث والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الرّابع والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الخامس والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّادس والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّابع والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثّامن والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل التّاسع والعشرون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الواحد والثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثاني والثّلاثون: لماذا قتلتني؟

-الطّفل الثالث والثلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الرّابع والثلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الخامس والثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّادس والثّلاثون: الطّفل لماذا قتلتني؟
-الطّفل السّابع والثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الثّامن والثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل التّاسع والثّلاثون: لماذا قتلتني؟
-الطّفل الأربعون: لماذا قتلتني؟
-من يجيبُ هؤلاءِ الأطفال؟
الذي يقول بُترت يدي، فكيف سأكتب مستقبلي؟
أصبحتُ أنا الآن مشلولا لا أستطيع كتابة حرفٍ، والذي يقول بترت رجلي، كيف سأمشي؟
أصبحت أنا الآن مقعدًا لا أستطيع المشي، أنتقم من نفسي الشريرة.
(يصرخ أمام الملأ، صمت رهيب خيّم على المكان لا أحد استطاع الردّ عليه حتّى نفذت جعبته وخرّت قواه، وأصبح لا يصلح للقتال فرمي به في مستشفى المجانين)
-لقد قتلت أكثر من أربعين (40) شخصا من أجلكم ولحدّ الآن تستمرون في خداعي وإرسالي من وحدة إلى أخرى.
- أنا أعاني وأصرخُ وأتبوَّل على نفسي في الليل، بسبب اضطراب ما بعد الصَّدمة، ولا أحد يتحمَّل مسؤوليَّة علاجي.

-هل يمكن أن تعيش بعد شيء كهذا؟

-هل يمكنك أن تأكل أو تفعل أيّ شيء في حياتك؟ فالذين قتلتهم يأتون في أحلامي ويقولون لي:

لماذا قتلتنا؟

-هل يمكن أن تجيبُ؟

يسأل الأوّل والثاني .....إلى الأربعين، رأسي يكاد ينفجر!

-صُراخهم يملأ المكان ضجيجًا، يبحثون عن أمهاتهم وآبائهم، إنِّي أسمعهم يصرخون في وجهي لا يتوقّفون.

يردّ عليه صديقه الذي بجانبه في المؤتمر: لا شيء من هذا القبيل، إنّك تتخيّل فقط، هذا المكان ليس مخصَّصا للأطفال، بل هو للمؤتمرات.

-أعرف ذلك، ولكنّكم لازلتم تخطّطون لقتل الأطفال لذلك أنا أراهم إنّهم يجلسون في مكانكم.

إنِّي أراهم، أُنظر، أُنظر إليهم، الدِّماء تملأ ملابسهم.

أنظر إنّهم ينظرون إلينا، أنظر إنّهم يصرخون بأعلى أصواتهم، لا أستطيع تحمّل ذلك، رأسي يكاد ينفجر...

أرجوكم ساعدوني، أرجوكم ساعدوني أخرجوهم من هذه القاعة، أخرجوهم من هذه القاعة عددهم كثير إنَّهم كثر، إنَّهم يتقدَّمون حولي إنّهم يتقدّمون حولي.

(يهدئ من روعه صديقه للمرة الثانية)

-لا يوجد أحد أخبرتك منذ قليل أنّك تتخيّل فقط.

يتدخّل رئيس المؤتمر بنيرة صارمة:
"هيأً خذوه، خذوه إلى مستشفى المجانين، إنّه لا ينفع الآن إنّه يزعجنا كثيرا"
"يردّ عليهِ"
(ما إن يسمع **بابلو** هذه الجملة حتّى تتراءى في ذهنه صور القتلى والجرحى والأطفال والدمار، يمسك رأسه بيديه، يتألم، يرجع إلى الخلف ويستند إلى الجدار)
يواصل الجندي...
أصبحتُ مزعجًا الآن، بعدما قتلتُ الأطفال؟ أصبحت مزعجا بعدما نفذتُ أوامركم؟ وانتقلتُ من مكان إلى مكان أصبحتُ مزعجا الآن، انتهت صلاحيّتي أليس كذلك؟
(يتحدَّث رئيس المؤتمر)
هيّا خذوه، هيّا خذوه، هذا المعتوه المجنون لن ينفعنا الآن انتهت صلاحيته.
هيَّا خذوه بعيدا عنِّي وإذا واصل إزعاجكم أعطوه حقنة لنرتاح منه كليا لدينا مهمّة أخرى تنتظرنا مهمّة أكبر من هذا، هيَّا احضروا بديلا عنه من القائمة الاحتياطية للجنود الطّغاة.
يغمى حينها على بابلو من هول ما سمع، فما حدث مع الجندي حدث معه قبل فقد ذاكرته، يرجعونه إلى المستشفى....
يستيقظ الصّحفي **بابلو** من نومه ينظر يمينا وشمالا يجد ليليا تنظر إليه والحزن يرسم نهايته على محيّاها، وكانت ليليا قد

سافرت إليه، بعدما رأت صوره في المؤتمر وأخبرت جوزيف بمعاناتها مع **بابلو**، فقال لها:

"هو لا يذكرك الآن، أنت غريبة بالنسبة إليهِ" فقالت:

سأنتظره حتّى يستعيد وعيه وأودّعه الوداع الأخير، سأتوقّفُ عن الكتابة لهُ، وسأشملهُ في دعائي، فأنا أتمنّى له كلّ السّعادة الموجودة في هذه الدّنيا...

كلّ السّعادة والفرح لقبلهِ، فهو يستحقُّ ذلك

وعندما أشتاقُ إليهِ لن أؤذيه ولن أشتمه أو أشكّ فيه مثل باقي النّساءِ، بل أضعُ يدي على قلبي وأدعو الله أن يسعدهُ أضعافا، ليس شرطا أن يكون ملكي، بعض الأمور نحبّها ولا نملكها، ليس هناك أحد ملك لأحد، فهي القلوب من تملك ذلك، القلوب هي الملوك الوحيدة على وجهِ الأرض، لا يوجد مملكة صادقة على هذه الأرض خير من مملكة القلبِ.

جوزيف

"الذي يحبّكِ لا يتركك مهما كانت الظروف، لأنّه يعرف أنّك بغيابه ستعانين...

الذي يحبُّك يضحِّي من أجلك، و لا يضحّي بك

الذي يحبُّك يصافحك ولو يداك مليئة بالشّوك

الذي يحبُّك ويقول يا عيوني لا يبكي عيناك

الذي يحبّك ويقول لك يا عمري، لا يتركُ عمره يمرّ دونك، فالعمر واحد وليس اثنان

فينادي على أطراف الحديث بابلو بعد أن استعاد وعيه على حديثهما:

ليليا أنتِ هنا**!**

يتفاجأ جوزيف وأنيس...

هل تذكرها يا **بابلو؟**

-نعم أذكرها إنّها أميرتي ليليا.

حينها تبتسمُ ليليا وتغمر قلبها الفرحة، ويعانق أنيس وجوزيف بابلو ويقولان:

وأخيرا تذكّرت ليليا يا بابلو، فقال:

-ومن قال لكم أنّني نسيتها؟

-هي الوحيدة التي شعرت أنّها تناسبني، فبعض الأرواح تلتقي لتتآلف لا لتتعارف فقط، منذ عرفت ليليا وأنا أشعر أنني التقيت بها من قبل، لعلّ روحي التقت بها في مكان ما.

حضرت ليليا لزيارة **بابلو** ولكنّه لم يتعرَّف عليها أو أنّه يُحاولُ يبعدها عنه بأيِّ طريقة حتّى لا تتأذى، ففي بعض الأحيان إذا أحبّك شخص ما من قلبهِ فإنّه يبعده عنك خوفا عليك.

كأنّك استعرتَ من ضوء القمر نورهُ وجمالهُ يا ليليا، فكلَّما أبصرتك بقلبي استعاد عافيته ونبضه وبثثت قبسًا من نورك لتنير ظلمتي في غيابك، وعلّقتني بحبل من نور لا يراه غيري وغيرك.... حبلك في السّماء نازل إلى أرضي، فهل يصلني يوما، أم أنّه سيبقى نور إلى أن أصعد لسمائك.

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

يأتي الطّبيب في تلك اللحظة، ويقول **لبابلو** اليوم هو آخر يوم لك معنا، ستعود إلى بلدك بريطانيا، فالحرب لا تصلح لك، فقد أذهبت عقله.

(كان **بابلو** على موعد خروجهِ من المستشفى في ذلك اليوم ليذهب إلى بلده ويودّع الحرب الذي أذهبت عقله)

طلبت منه **ليليا** صعود السيارة لتأخذه إلى بيتهِ، لكنّه شدّ الرّحال مرّة أخرى ليذهب إلى مكان آخر...

نظرت إليه **ليليا** وقالت: هيّا اركب معنا، إلى أين ذاهب؟ فقال:

-إلى الأرض المباركة، إلى فلسطين، سأكملُ مهمّتي وأصلّي بالمسجد الأقصى وأستشهد هناك فاكتبوا التّاريخ، أبناء غزّة هم التّاريخ نفسه، فقلّبوا صفحاتهم إن استطعتم ذلك، واسأل نفسك أيّها القارئ الذي تماهى ظلّه بهذه الصّفحات:

-هل تملكُ من القوَّة ما يجعلكَ تُواصلُ تقليب صفحاتِ التّاريخ أيّها القارئ؟

لتدركَ قيمة الوطن، قيمة الحدود التي سقيت بالدّماءِ؟ أم أنَّ الكَلام في حضرةِ أولئك يُصبح كِلاَم، لنفترض أنّك تملك ذلك، سيُقابلك الشّهيد الأوّل ليأخذ منكَ مَوثقًا من الله كما أخذهُ يعقوب عليه السّلام من أبنائهِ، حين قال: (الله علَى مَا نقولُ وكِيلٌ) ولنفترض أنّك آتيتَ موثقكَ وعهدكَ لحفظِ هذا البلد والذّودِ عنه بالنّفس والنّفيس، ولجتَ الصّفحة بموثقك لأجدادك الشُّهداء...

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

ها أنت تقفُ على أوّل محطّات التّضحيات ترى الكيان الغريب يبسط نفوذه، ينهبُ ثروات بلادك، يحرقُ المدن ويدمرها ويبيدها، يُعذّبُ في السّجون بالكهرباء وبكلّ أنواع الحيوانات، يطمسُ هويّتك بحرق المكتبات، أتعرفُ كم مخطوطًا علميًّا تمَّ حرقهُ ولا يوجد له نسخ لحدِّ اليوم؟

-هل تملكُ من القوّة ما يجعلكَ تُواصل تقليب صفحات التّاريخ لتعرفَ مسؤوليّتكَ، لتدركَ أنّ بلدك في عُيونِ العالم؟ لتعرف حدودك أنّها بحدود بلدك؟ فكلُّ الأنظار مُوجّهة صوبهُ، وأنتَ لازلت تبحثُ عن الألغاز والأسرار وتُحاولُ ملأ الفجوات، وأنت تقلّب صفحات تاريخ بلادك، سَيُقابلكَ الشّهيد الزَّوج ويسألكَ عن زوجهِ وولدهِ، والفلَّاح الذي يسألكَ عن أرضهِ ما حلَّ بِهَا، والقائد الذي يسألكَ عن رعيَّته كيفَ أبليتَ معها؟ ويسألك الطّفل بعدما أخبر الله بكلّ شيء، فإن لم يعجزك الكبار بأسئلتهم سيعجزك الأطفال الصِّغار.

اعتراف

لم تستطع الرِّوائية تقديم شيء لأطفال غزّة غير أنّها قدّمت دموع حزنٍ ومواساة وطبقٍ حلوٍ ومملّح واسما مقدسيًّا لحجرات تدريسها، كتبت بمشاعرها والدّموع بصحبتها وهي تسرد آهات أمّهات وأطفال يتجرّعون ألم الفقد، عايشت معهم الحدث عن كثب، لم تقدّم الكثير غير أنّها كانت ترفع يديها كلّ يوم وتُخبر الله عن أهل غزّة وهي تدعو لهم بالتأييد والنّصر، لم تستطع

تقديم الكثير غير أنّها ساهمت مع جمعيّة نساء مسلمات في سويسرا لوزان ثلاث مرّات بجمع حرائر عربيات وأوربيات مسلمات اجتمعن على صنع حلويات ومملحات وببيعها في أفخم وأعرق الأحياء بسويسرا بطريق (لويس فيتو)، فحضرت في ذلك اليوم الإنسانيّة، هبّ بالدعم والمساندة كلّ مرّ بنا، فعجبنا للإنسانيّة كيف توحدّ بني البشر، ساهم المسيحي والمسلم وغيره، ووضعوا أيديهم على قلوبهم وهم يحدّثوننا بألم بلغتهم الأجنبية والدموع تملأ أعينهم عن تضامنهم، فكان المبلغ مبهرا لم نتوقّعه، تمّ إرسال ذلك المبلغ إلى العائلات، فكانت فرحة الأطفال عارمة وهم يستقبلون أطباق شهية ساخنة مع صهاريج ماء صالحة للشرب، كانت دموع فرحة ونحن نرى الفيديوهات المرسلة من هناك من غزّة، ليس هذا فحسب التفت حول مائدتنا حمامتين استجلبت النّاس إلينا ونحن نطعمهم من المملّحات، كم كان المنظر جميلا، فحتّى الحمامتين ساهمتا بطريقتهما، لم تستطع تقديم شيء غير أنّها جهزت قاعة تدريس باسم القدس وكلّ طاولاتها بالعلم الفلسطيني وقبل عشرات سنوات عام 2014 وأثناء تثبيتها في مهنة التدريس اختارت درس التثبيت بعنوان: "الموت والزيتون"، وخياطة 30 وشاحا بعلم فلسطين، وغرس شجيرة الزيتون في ذلك اليوم، الشجيرة عمرها الآن عشر سنوات ولا تزال الروائية تكتب أمنيتها بيدها

اليمين لتحقق حلمها ذات يومٍ لتزور القدس وتصلّي بالمسجد الأقصى، وما ذلك على الله بعزيز.

أحلم بزيارة غزّة فلغزة حكاية ليست ككلّ الحكايات، حكاية غزة ليست مثل حكاية شهريار، ولا حكايات ألف ليلة وليلة بل حكايات ألف ألف شهيد وشهيد، ولا حكاية أبطال وأبطال، بل حكاية أطفال أبطال، حكاية أطفال عايشوا الحدث بكلّ مجرياته، حكاية أطفال أخذوا شهادات الاستشهاد قبل الشهادات المدرسيّة، ارتقوا إلى السَّماء بدل الشَّهادات السنويّة المدرسيّة، تخرجوا وكانت نقاطهم عالية، نقاط المقاومة والصّبر والجهاد والجلد من أرض الميدان، إنّهم أبطال غزَّة، هذه هي الحكاية حكاية أطفال أبطال كتبها التَّاريخ بدمائهم ولم يكتبها بأحرفٍ من ذهب.

تركنا غزّة اليوم وهي في فترة استراحة محارب، وقف إطلاق النّار بتاريخ الأحد 19 كانون الثاني (يناير) 2025م، السّاعة الثامنة والنّصف صباحا.

ستنتهي الحرب وماذا بعد الحرب؟

-هل سينبضُ القلب بالحياة؟ تنظر ليدك لا تجدها، تبحثُ عن رجلك لا تتحسّسها!

-تبحث عن ابنك الذي فرحت بمولدهِ لن تجده، فقد امتزجت شهادة ميلاده بشهادة وفاته.

-المدينة كلّها ركام، خاوية على عروشها...

سَأُخْبِرُ الله بِكُلِّ شيء

أستسمحكم الآن؛ فأنا أرى شباب غزّة يعيدون بناء مدينتهم، يعيدون ترميم قلوبهم، الأطفال لا يزالون يلعبون لعبة الشّهادة، والطفل لا يزال يردّد:

"سأُخبِرُ الله بكلِّ شيء"

سأتركُ لكم الصّفحة الأخيرة لتكتبوا فيها بنبض قلوبكم، وفيضِ مشاعركم، فمن حقّكم أن تخبروا الله بكلّ شيء في الثّلث الأخير من الليل، فما عليكم إلا صلاة ركعتين وبعدها ابعثوا برسائلكم وأخبروا الله بكلّ شيء، وسترون العجب العُجاب، ففي كلّ سجدةٍ تتساقط الذّنوب والخطايا، وفي كلّ رفعٍ تتخلّصون من الهموم التي تكون على عاتقكم كالجبال، ستشعرون براحة نفسية لا مثيل لها، لا يعوّضها المال ولا الجاهُ ولا المناصب.

سَأُخْبِرُ اللهَ بِكُلِّ شيء

سَأُخبِرُ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ...

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....الكلّ يوقّع باسمهِ..................

سأخبر الله بكل شيء

بوخاري خيرة سلسبيل



رحلَ ذلكَ الصّغيرُ وهو يحملُ رسالتهُ الرّوحيّة التي عرجت إلى السّماء تاركا لكم عبارتهُ الشّهيرة: "سَأُخبِرُ اللهَ بِكُلِّ شَيء"، رحلَ وهو يحملُ في يمين كلّ حرفٍ صرخةَ الإنسانيّة، وفي يسار كلّ حرفٍ أحداث نهاية العالم الإنساني ليحلّ محله إنسان هجين، فقد انتهى العالم فعلا يوم صرخَ ذلك الطّفلُ وهو يرفع بصره نحو السّماء قائلا لكم وهو يُحتضر: "سَأُخبِرُ اللهَ بِكُلِّ شَيء"، فلا تلوموه إذا حلّ بكم الوباء والإعصار ولحقتكم اللّعنة، فقد أخبر العالم كلّه أنّ ذراعهُ بُتِرت وهو يلعبُ لعبة السّطرنج فوق التُّراب ولم يسمعه أحد، ولم يعبأ به أحد، سقطت أصابعهُ الصّغيرة في لوحة السّطرنج فتلقّفها الجميعُ الأخ والعدوّ، فأخذت تكتبُ الوصايا التي لم يتجرّأ أحد من قبل على كتابتها:

سأخبر الله أنّ البشر متغيِّرون متلوّنون، يلبسونَ ألفَ قناعٍ في اليوم، ويغيّرون جلودهم آلاف المرّات.

سأخبر الله أنّكم أخطأتم في حقّي كما أنّي أخطأتُ في حقّ نفسي، فهذا العالم يا أحبابي أصبح مُكهربًا، الخداع، الحرب، الخذلان، الكلّ مُصاب بالضّغط، بداء السّكري، الوباء، والموت يحصد الأرواح هنا وهناك ولا أحد يدرك ذلك إلا الصّحفي الذي فقد عقلهُ أثناء الحرب وبقي لهُ جسدهُ الذي يتحرّك به، ويده اليمنى التي يرفعُ بها علمه، وهو حاليا يقبعُ في مستشفى العقلاء، لأنّ المجانين خارجا.

مؤلفات الكاتبة

boukharisalsabill990@gmail.com







